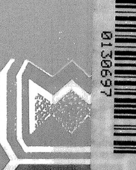
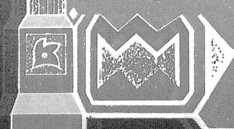
محمود شلبي

حياة الملك المظفر قطز

قاهر التتار - وبطل معركة عين جالوت



دار الجيل
بيروت - لبنان

حياة

الملك المظفر قطز

حياة

الملك المظفر قطز

قاهر التتار - وبطل معركة عين جالوت

تأليف
محمود شلبي

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

الإهداء

اللهم... منك... وإليك

محمود شلبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمدك اللهم حمدًا طيبًا مباركًا فيه

وأصلي وأسلم على خاتم المرسلين... وعلى آله وصحبه والتابعين...

وبعد...

السلطان... المَلِك... المظفَّر... قُطُز؟!...

كانت مدَّة مملكته أربعة عشر شهرًا... وثلاثة عشر يومًا!!!

تسلطن مَلِكًا على مصر... أربعة عشر شهرًا؟!!

أي عامًا واحدًا!!!

ومع هذا... ورغم قِصَر مدة حُكمه... جاء بالعجب العجاب!!!

أباد المغول عن آخرهم... في معركة عين جالوت...

فكانت هذه المعركة نقطة التحول في التاريخ الإسلامي...

فتراجع المغول ـ التتار ـ إلى الوراء... بعيدًا...

ثم استدار سلاطين المماليك... الذين جاءوا من بعد قُطُز... يجهزون على الإمارات الصليبية بالشام... حتى تمت تصفيتها!!!

حَكمَ قُطُز عامًا واحدًا وشهرين...

تحدَّى فيه قوات المغول التي لا تُقهر... فقهرها!!!

وفتـح البـاب لمن بعـده... فـأتَمّـوا الاجهـاز على الصليبيين وتبديدهم!!!
كيف كان ذلك؟!...
ذلك موضوع هذا الكتاب.

محمود شلبي

البطل صلاح الدين...
يقهر الصليبيين...
في معركة حِطِّين...؟!

جاءوا من دول أوروبا ... يدقون الطبول ... ويرتدون الصُلبان ...
ويتنادون ... بإبادة الكفرة المسلمين ...

واستطاعوا أن ينشئوا إمارات صليبية في بلاد الشام!!!

ومضى على هذا الحال نحو تسعين عامًا ...

حيث بدأت الحملات الصليبية سنة ١٠٩٩ م ...

ووقعت معركة « حطين » بقيادة « صلاح الدين الأيوبي » سنة (٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م).

فكانت تلك المعركة نقطة التحول الكبرى في مسار الحروب الصليبية ...

جعلت أوروبا كلها تولول وتتنادى بالثأر من الكفرة الفجرة المسلمين!!!

فكيف كانت تلك المعركة؟!!

وما هي آثارها؟!!

إليك تفصيل تلك الملحمة العظمى « حِطّين »!!!

صلاح الدين يأمر بالتعبئة العامة؟!

يعتبر عام ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م...

عام الفصل بين المسلمين والفرنجة... وعام النصر العزيز...

في هذه السنة كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد، يستنفر الناس للجهاد...

وكتب إلى الموصل... وديار الجزيرة... وإربل... وغيرها من بلاد الشرق...

وكتب إلى مصر... وسائر بلاد الشام... يدعوهم إلى الجهاد... ويحثهم عليه... ويأمرهم بالتجهز له بغاية الإمكان...

إنها الحرب المقدسة...

وإنه صلاح الدين!!!

البطل يخرج؟!

ثم خرج من دمشق... أواخر المحرم... في عسكرها، وقواتها الخاصة، فسار إلى رأس الماء، وتلاحقت به العساكر الشامية...

فلما اجتمعوا، جعل عليهم ولده... الملك الأفضل عليّ... ليجتمع إليه من يرد إليه منها...

وسار البطل إلى بصرى... في فرقة من الجيش... وكان سبب مسيره وقصده إليها... أنه أتته الأخبار أن البرنس أرناط... صاحب الكرك... يريد أن يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم...

وأظهر أنه إذا فرغ من أخذ الحجاج... يرجع إلى طريق الجيش

المصري... يصدهم عن الوصول إلى صلاح الدين...

فسار إلى بصرى... ليمنع البرنس أرناط... من طلب الحجاج... ويلزمه بلده خوفًا...

وكان من الحجاج جماعة من أقارب صلاح الدين... منهم محمد بن لاجين... وهو ابن أخت صلاح الدين... وغيره...

رعب أصاب أرناط؟!

فلما سمع أرناط بقرب صلاح الدين من بلاده لم يفارقه!!!

وانقطع عما طمع فيه... فوصل الحجاج سالمين!!!

فلما وصلوا... وفرغ سره من جهتهم... سار صلاح الدين إلى الكرك.. وبث سراياه من هناك... على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما... فغنموا وخربوا وأحرقوا.

والبرنس محصور... لا يقدر على المنع عن بلده...

وسائر الفرنج قد لزموا طرق بلادهم... خوفًا من الجيش الذي مع ولده الأفضل...

فتمكن من الحصار والنهب والحريق والتخريب...

هذا تكتيك البطل... لإشاعة الرعب في الأعداء... وتحطيم أعصابهم!!!

أمرٌ من البطل بتخريب عكا؟!

ثم أرسل صلاح الدين إلى ولده الأفضل... يأمره أن يرسل فرقة من الجيش... إلى بلد عكا... ينهبونه ويخربونه...

فسير فريقًا من أكابر الأمراء...

فساروا ليلًا... وأصبحوا في صفورية...

فخرج إليهم الفرنج... في جمع من الداوية والاسبتارية (فرسان المعبد والكنيسة) وغيرهما...

فالتقوا هناك...

وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود...

ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين...

فانهزم الفرنج... وقتل منهم جماعة... وأسر الباقون!!!

وكان فيمن قُتل... قائد الاسبتارية... وكان من فرسان الفرنج المشهورين... وله نكايات عظيمة في المسلمين!!!

واستولى المسلمون على ما جاورهم من البلاد... وغنموا وعادوا سالمين...

وكان عودهم على طبرية... وعلى رأسها ريموند... فلم ينكر ذلك فكان فتحًا كثيرًا!!!

البطل يستعرض الجيوش؟!

لما أتت صلاح الدين البشارة... بهزيمة الاسبتارية والداوية... وهم فرسان المعبد والكنيسة الأشداء... وقتل منهم من قتل، وأسر منهم من أسر...

عاد من الكرك إلى الجيش الذي مع ولده الملك الأفضل...

وقد تلاحقت سائر القادة والجيوش... واجتمع بهم... وساروا جميعًا...

واستعرض الجيوش... فبلغت عدتهم اثني عشر ألف فارس... سوى المتطوعة!!!

فعبأ جيشه قلبًا وجناحين... وميمنة وميسرة... ورماة وساقة...

وعرف كل منهم موضعه وموقفه، وأمره بملازمته...

وسار البطل على تعبئة...

فنزل بالأقحوانة بقرب طبرية...

وتشعشع من فوقهم قوله ﷺ:

«لا يهزم اثني عشر ألفًا من قلة»!!!

ريموند ينقض المعاهدة؟!

وكان القمص ريموند قد انتمى إلى صلاح الدين...

فلما رأى الفرنج الجيوش الإسلامية، وتصميم العزم على قصد بلادهم... أرسلوا إلى ريموند... البطرك والقسوس والرهبان وكثيرًا من الفرسان... فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين...

وقالوا له: لا شك أسلمتَ؟!!... وإلّا لم تصبر عن فعل المسلمين أمس بالفرنج... يقتلون الداوية والاسبتارية... ويأسرونهم... ويجتازون بهم عليك... وأنت لا تنكر ذلك؟!!

ووافقهم على ذلك من عنده من جيش طبرية وطرابلس...

وتهدده البطرك، أنه يحرمه، ويفسخ عليه نكاح زوجته إلى غير ذلك من التهديد...

فلما رأى القمص ريموند شدة الأمر عليه، خاف واعتذر وتنصل وتاب...

فقبلوا عذره، وغفروا زلته، وطلبوا منه الموافقة على المسلمين...
والمؤازرة على حفظ بلاد الفرنج...
فأجابهم إلى المصالحة... والانضمام إليهم... والاجتماع بهم...
وسار معهم إلى ملك الفرنج... ملك بيت المقدس...
واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم!!!
وجمعوا فارسهم وراجلهم... ثم ساروا من عكا إلى صفورية...
وهم يقدمون رجلًا ويؤخرون أخرى، قد ملئت قلوبهم رعبًا!!!

مؤتمر عسكري برئاسة صلاح الدين؟!

لما اجتمع الفرنج... وساروا إلى صفورية...

جمع القائد الأعلى البطل صلاح الدين قواده واستشارهم...

فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء... وأن يضعف الفرنج بشن الغارات، وإخراب الولايات، مرة بعد مرة...

فقال له بعض قواده: الرأي عندي أننا نجوس بلادهم، وننهب ونخرب ونحرق ونسبي... فإن وقف أحد من جيش الفرنج بين أيدينا لقيناه... فإن الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون: ترك قتال الكفار، وأقبل يريد قتال المسلمين!!، والرأي أن نفعل فعلًا نعذر فيه، ونكف الألسنة عنّا...

فقال صلاح الدين: **«الرأي عندي أن نلقي بجمع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلّا بعد الجد بالجهاد»!!!**

البطل يصطف للمعركة؟!

فسار حتى خلّف طبرية وراء ظهره...

وصعد جبلها... وتقدم حتى قارب الفرنج...

فلم يرَ منهم أحدًا!!!

ولا فارقوا خيامهم!!!

فنزل وأمر الجيش بالنزول...

فلما جنّه الليل، جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال...

ونزل بفرقة إلى طبرية... وقاتلها... ونقب بعض أبراجها... وأخذ المدينة عنوة في ليلة!!!

ولجأ من بها إلى القلعة التي لها... فامتنعوا بها... وفيها صاحبتها ومعها أولادها...

فغنم ما في المدينة وأحرقها...

فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين إلى طبرية... وملكه المدينة، وأخذه ما فيها وإحراقها، وإحراق ما تخلف مما لا يحمل...

اجتمعوا للمشورة...

فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم من طبرية...

أرناط يسخر من ريموند؟!

فقال القمص ريموند: إن طبرية لي ولزوجتي، وقد فعل صلاح الدين ما فعل... وبقيت القلعة وفيها زوجتي، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي وما لنا بها ويعود...

«فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديمًا وحديثًا، ما رأيت مثل هذا الجيش الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة!!!

وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها، فمتى فارقها وعاد منها أخذناها، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلّا بجميع جيشه، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم، فيضطر إلى تركها، ونفك من أسر منّا..

فقال له برنس أرناط... صاحب الكرك: قد أطلت في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم، وإلّا ما كنت تقول هذا؟!. وأما قولك إنهم كثيرون فإن النار لا يضرها كثرة الحطب!!!

فقال: أنا واحد منكم، إن تقدمتم تقدمت، وإن تأخرتم تأخرت، وسترون ما يكون.

فقوي عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم...

فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه... وقربوا من جيش الإسلام!!!

وأفلح صلاح الدين... في استخراجهم من مكانهم... واستدراجهم للقتال!!!

الليلة الفاصلة؟!

فلما سمع صلاح الدين بذلك... عاد من طبرية إلى جيشه، وكان قريبًا منه...

وإنما كان هدفه بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم، ليتمكن من قتالهم!!!

وتلك عبقرية من البطل... أن يستخرج عدوه إلى المكان الذي يريده!!!

وكان المسلمون قد نزلوا على الماء... والزمان قيظ شديد الحر...

فوجد الفرنج العطش...

ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين...

وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج... ولم يتمكنوا من الرجوع خوفًا من المسلمين...

فبقوا على حالهم إلى الغد... وهو يوم السبت... وقد أخذ العطش منهم...

وأما المسلمون فإنهم طمعوا فيهم... وكانوا من قبل يخافونهم... فباتوا يحرض بعضهم بعضًا...

وقد وجدوا ريح النصر والظفر...

وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان... زاد طمعهم وجرأتهم...

فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم...

ورتب السلطان تلك الليلة الرماة... ورتب فيهم النشاب!!!

المعركة الكبرى... حِطّين؟!

أصبح البطل صلاح الدين... والمسلمون يوم السبت... لخمس بقين من ربيع الآخر...

فركبوا... وتقدموا إلى الفرنج!!!

الله... الله... إن الفرسان يتقدمون للموت... وعلى رأسهم البطل!!

فركب الفرنج...

ودنا بعضهم من بعض...

إلّا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش... وانخذلوا...

فاقتتلوا...

واشتد القتال...

وصبر الفريقان...

ورمى رماة المسلمين من النشاب... ما كان كالجراد المنتشر...

فقتلوا من خيول الفرنج كثيرًا...

أما الفرنج... فقد جمعوا نفوسهم... براجلهم... وهم يقاتلون... سائرين نحو طبرية... لعلهم يردون الماء!!!

فلما علم صلاح الدين مقصدهم... صدهم عن مرادهم...

ووقف بالعسكر في وجوههم!!!

البطل يحرض جنوده؟!

وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم... ويأمرهم بما يصلحهم... وينهاهم عما يضرهم...

والناس يأتمرون لقوله، ويقفون عند نهيه!!!

منظر خالد... البطل... في ملابس الميدان... يتنقل بين صفوف جيوشه... على صهوة جواده... وألوف الفرسان من المسلمين... على صهوات خيولهم...

كل ينتظر... إحدى الحسنيين... إما النصر... وإما الشهادة!!!

إن صلاح الدين... ها هنا أعظم داعية... إلى الله...

إنه الفارس الأعظم...

يخاطب الفرسان... في صفوفهم!!!

ما أجمل هذا؟!!

ما أعظم هذا؟!!

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾[1]!!!

ثم ماذا؟!!

الالتحام؟!!

فحمل مملوك من مماليكه الصبيان... حملة منكرة على صف الفرنج... فقاتل قتالًا عجب منه الناس...

ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه!!!

فحين قُتل... حمل المسلمون حملة منكرة... ضعضعوا الكفار... وقتلوا منهم كثيرًا...

فلما رأى القمص ريموند شدة الأمر... علم أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين...

فاتفق هو وجماعة... وحملوا على من يليهم...

وكان قائد المسلمين في تلك الناحية... تقي الدين عمر... ابن أخي صلاح الدين...

فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب... علم أنه لا سبب إلا بالوقوف في وجوههم...

فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقًا يخرجون منه...

وكان بعض المتطوعين قد ألقى في تلك الأرض نارًا...

وكان الحشيش كثيرًا... فاحترق...

(١) سورة الصف، آية ٤.

وكانت الريح... فحملت حرّ النار والدخان إليهم!!!

فاجتمع عليهم العطش...

وحرّ الزمان...

وحرّ النار والدخان...

وحرّ القتال!!!

فطلعت الشمس على وجوه الفرنج... واشتد الحرّ، وقوي بهم العطش...

وكان تحت أقدام خيولهم حشيش قد صار هشيمًا...

وكان ذلك عليهم مشئومًا...

فأمر السلطان النفاطة أن يرموه بالنفط...

فرموه... فتأجج نارًا... تحت سنابك خيولهم...

فاجتمع عليهم حر الشمس... وحر العطش... وحر النار... وحر السلاح... وحر رشق النبال!!!

فلما انهزم القمص ريموند... سقط في أيديهم... وكادوا يستسلمون!

ثم علموا أنهم لا ينجيهم من الموت إلّا الإقدام عليه...

فحملوا حملات متداركة...

كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم... لولا لطف الله بهم...

إلّا أن الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون... إلّا وقد قتل منهم...

فوهنوا لذلك وهنا عظيمًا!!!

البطل يأمر بالتكبير والهجوم؟!

ثم أمر السلطان بالتكبير... والحملة الصادقة...

فأحاط بهم المسلمون... إحاطة الدائرة بقطرها...

فارتفع من بقي من الفرنج... إلى تل... بناحية «حِطّين»...

وأرادوا أن ينصبوا خيامهم... ويحموا نفوسهم به...
واشتد القتال عليهم من سائر الجهات...
ومنعوهم عما أرادوا...
ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير!!!
وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم... الذي يسمونه « صليب الصلبوت »...
ويذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام!!!
فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم... وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك...
هذا والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ومشاتهم!!!
فبقي الملك على التل... في مقدار مائة وخمسين فارسًا من الفرسان المشهورين... والشجعان المذكورين!!!

البطل يسجد لله شكرًا ؟!

فحكي عن الملك الأفضل ـ ولد صلاح الدين ـ قال:
« كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهدته،
« فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين، حتى ألحقوهم بوالدي. قال:
« فنظرت إليه، وقد علته كآبة، واربد لونه، وأمسك بلحيته، وتقدم وهو يصيح « كذب » الشيطان.
« فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا إلى التل...
« فلما رأيت الفرنج قد عادوا، والمسلمون يتبعونهم، صحت من فرحي « هزمناهم »!!!

« فعاد الفرنج، فحملوا حملة ثانية مثل الأولى، ألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعل أولًا.

« وعطف المسلمون عليهم، فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضًا « هزمناهم» !!!

« فالتفت والدي إليّ وقال: اسكت، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة.

« قال: فهو يقول لي... وإذا الخيمة قد سقطت» !!!

فنزل السلطان...

وسجد شكرًا لله تعالى...

فبكى من فرحه...

وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات، ازدادوا عطشًا...

وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه...

فلم يجدوا إلى الخلاص طريقًا...

فنزلوا عن دوابهم... وجلسوا على الأرض..

فصعد المسلمون إليهم...

فألقوا خيمة الملك...

وأسروهم عن بكرة أبيهم...

وفيهم الملك... وأخوه...

والبرنس أرناط صاحب الكرك... ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين!!!

٣٠٠٠٠ قتيل و٣٠٠٠٠ أسير؟!

وأسروا أيضًا صاحب جبيل... وابن همفري... وقائد الداوية... وكان من أعظم الفرنج شأنًا...

وأسروا أيضًا جماعة من الداوية... وجماعة من الاسبتارية...

وكثر القتل والاسر فيهم...

فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدًا...

ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدًا!!!

فقتل منهم ثلاثون ألفًا من ذلك اليوم...

وأسر ثلاثون ألفًا من شجعانهم وفرسانهم!!!

وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل... وهو سنة ٤٩١ هـ... إلى الآن بمثل هذه الوقعة.

البطل يضرب عنق أرناط؟!

فلما فرغ المسلمون منهم... نزل صلاح الدين في خيمته...

وأحضر ملك الفرنج عنده... وبرنس صاحب الكرك...

وأجلس الملك إلى جانبه... وقد أهلكه العطش... فسقاه ماء مثلوجًا... فشرب وأعطى فضله برنس صاحب الكرك فشرب...

فغضب السلطان، وقال له: إنما ناولتك، ولم آذن لك أن تسقيه... هذا لا عهد له عندي...

ثم تحول السلطان إلى خيمة... داخل تلك الخيمة...

واستدعى بأرناط صاحب الكرك...

فلما أوقف بين يديه... قام إليه بالسيف، ودعاه إلى الإسلام... فامتنع...

فقال له: نعم... أنا أنوب عن رسول الله... ﷺ... في الانتصار لأمته...

ثم قتله... وأرسل برأسه إلى الملوك... وهم في الخيمة.

وقال: إن هذا تعرض لسبّ رسول الله... ﷺ... وكنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به... إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة... والثانية لما أخذ القافلة غدرًا...

فلما قتله... وسُحب وأخرج... ارتعدت فرائص الملك...

فسكّن جأشه وأمّنه...

ثم قتل السلطان جميع من كان من الأسارى... من الداوية والاسبتارية...

وأما القمص... صاحب طرابلس... فإنه لما نجا من المعركة، وصل إلى صور... ثم قصد طرابلس...

ولم يلبث إلّا أيامًا قلائل، حتى مات غيظًا وحنقًا... مما جرى على الفرنج...

وكان جملة جيشهم ثلاثة وستين ألفًا... قتل نحوًا من نصفه... وأسر الباقي!!!

فتح طبرية؟!

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج... توجه إلى طبرية ونازلها...

فأرسلت صاحبتها... تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها وما لها...

فأجابها إلى ذلك...

واستولى على طبرية!!!

وهكذا النصر... يدفع إلى النصر!!!

فتح عكا؟!

لما فرغ صلاح الدين من طبرية... سار عنها إلى عكا...

فبينما هو ينظر من أين يزحف عليها... إذ خرج كثير من أهلها يضرعون ويطلبون الأمان...

فأجابهم إلى ذلك... وأمنهم على أنفسهم وأموالهم...

وخيّرهم بين الإقامة والرحيل...

فاختاروا الرحيل...

ودخل المسلمون إليها... وصلوا بها الجمعة...

وهذه الجمعة أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي... بعد أن ملكه الفرنج...

وهكذا بانهيار القوة العظمى للصليبيين في معركة حطين... بدأت البلاد التي كانت بأيديهم تتهاوى بدون مقاومة تستحق الذكر... في أيدي صلاح الدين!!!

فتح المجدل؟!

لما هزم صلاح الدين الفرنج... أرسل إلى أخيه العادل بمصر يبشره بذلك... ويأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة مصر بمن بقي عنده من الجيش... ومحاصرة من يليه منها...

فسارع إلى ذلك... وسار عن مصر... فنازل حصن مجدل وحاصره وغنم ما فيه...

وأرسل إلى صلاح الدين يبشره بذلك!!!

فتح يافا ؟!

لما خرج العادل من مصر ... وفتح المجدل... سار إلى مدينة يافا ... وهي على الساحل... فحاصرها واستولى عليها عنوة!!!

فتح صيدا ؟!

ثم سار صلاح الدين إلى صيدا ... فأخذها بغير قتال... وتسلمها ساعة وصوله إليها!!!

فتح بيروت؟!

فلما فرغ من صيدا ... سار عنها من يومه نحو بيروت...
وزحف المسلمون إليها مرة بعد مرة...
ثم أرسل أهلها يطلبون الأمان...
فأمنهم عن أنفسهم وأموالهم... ثم تسلمها!!!

فتح عسقلان؟!

لما استولى صلاح الدين على بيروت وغيرها ... كان أمر عسقلان والقدس أهم عنده... لأنه كان يفضل أن تتصل الولايات له، ليسهل خروج الجنود منها ودخولهم إليها...

فسار عن بيروت نحو عسقلان...

وبعد قتال قليل... راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد...

فأجابهم صلاح الدين... وسلموا المدينة...

وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس... كما طلبوا...

ثم أقام بظاهرها... وبث السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها...

ففتحوا الرملة... والداروم... وغزة... ومشهد إبراهيم الخليل عليه السلام... وبيت لحم... وبيت جبريل... والنطرون...

وهكذا تساقطت بلاد الصليبيين... وحصونهم... وقلاعهم...

واستوى البطل عليها؟!!

البطل صلاح الدين . . .

يستخلص القدس . . .

من الصليبيين . . . ؟!

الأسطول المصري يحاصر القدس بحرًا ؟!

لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد...
أرسل إلى مصر... ليخرج الأسطول الذي بها... في جمع من المقاتلة...
فخرج الأسطول المصري... يقوده حسام الدين لؤلؤ الحاجب...
وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة...
فأقاموا في البحر... يقطعون الطريق على الفرنج... كلما رأوا لهم مركبًا غنموه...
فحين وصل الأسطول، وخلا سره من تلك الناحية...
سار البطل عن عسقلان... إلى القدس!!!

الصليبيون يحتشدون في القدس؟!

وكان بالقدس البطرك المعظم عندهم... وهو أعظم شأنًا من ملكهم...
وبه أيضًا باليان بن بيرزان صاحب الرملة... وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك...
وبه أيضًا من خلص من فرسانهم من حطين...

وقد جمعوا وحشدوا... واجتمع أهل تلك النواحي... عسقلان وغيرها...
واجتمع به كثير من الخلق... كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون القدس...
ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده، بعض ما يجب عليه من حفظه!!!
وحصنوه تلك الأيام، وما وجدوا إليه سبيلًا...
وصعدوا على سوره بجدهم وحديدهم... مجتمعين على حفظه والدفاع عنه... بجهدهم وطاقتهم... مظهرين العزم على المناضلة بحسب استطاعتهم...
ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه...

القضاء على داورية للمسلمين؟!

ولما قرب صلاح الدين منه...
تقدم قائد في جماعة عن أصحابه... غير محتاط ولا حذر...
فلقيه جمع من الفرسان خرجوا من القدس... ليكونوا حرسًا...
فقاتلوه وقاتلهم... فقتلوه... وقتلوا جماعة ممن معه...
فأحزن المسلمين قتله... وفجعوا بفقده...

معركة القدس؟!

وساروا حتى نزلوا على القدس...
فلما نزلوا عليه... رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم...
وسمعوا لأهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع...

وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة، لينظر من أين يقاتله؟!

لأنه في غاية الحصانة والامتناع... فلم يجد عليه موضع قتال إلّا من جهة الشمال... نحو باب عمود أو كنيسة صهيون...

فانتقل إلى هذه الناحية... في العشرين من رجب... ونصب تلك الليلة المنجنيقات... فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها... ورمى بها...

ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات... ورموا بها...

وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس...

كل واحد من الفريقين... يرى ذلك دينًا... وحتمًا واجبًا... فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني...

بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون... ويزجرون ولا ينزجرون...

وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد... يقاتلون ويبارزون... فيُقتل من الفريقين...

وممن استشهد من المسلمين... القائد عز الدين عيسى بن مالك... وهو من كبار القواد... وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم... فقُتل... وكان محبوبًا إلى الخاص والعام...

فلما رأى المسلمون مصرعه، عظم عليهم ذلك، وأخذ من قلوبهم...

فحملوا حملة رجل واحد...

فأزالوا الفرنج عن مواقفهم... فأدخلوهم بلدهم...

ووصل المسلمون إلى الخندق... فجاوزوه... والتصقوا إلى السور فنقبوه...

وزحف الرماة يحمونهم...

والمنجنيقات توالي الرمي... لتكشف الفرنج عن الأسوار... ليتمكن المسلمون من النقب...

فلما نقبوه... حشوه بالمتفجرات...

فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين، وتحكم المنجنيقات بالرمي المتتابع... وتمكن النقابين من النقب... وأنهم قد أشرفوا على الهلاك...

اجتمع قوادهم يتشاورون، فما يأتون ويذرون...

فاتفق رأيهم على طلب الأمان... وتسليم البيت المقدس إلى صلاح الدين

فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان!!!

صلاح الدين يرفض عرض الصليبيين؟!

فلما ذكروا ذلك للسلطان... امتنع من إجابتهم...

وقال: لا أفعل بكم، إلّا كما فعلتم بأهله، حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها.

فلما رجع الرسل خائبين محرومين... أرسل باليان بن بيرزان... وطلب الأمان لنفسه... ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر...

فأجيب إلى ذلك...

وحضر عنده... ورغب في الأمان وسأل فيه...

فلم يجبه إلى ذلك...

واستعطفه فلم يعطف عليه...

واسترحمه فلم يرحمه...

فلما أيس من ذلك، قال له:

« أيها السلطان... اعلم أننا في هذه المدينة... في خلق كثير لا يعلمهم إلّا الله تعالى... وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان... ظنًّا منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم.

« وهم يكرهون الموت، ويرغبون في الحياة.

« فإذا رأينا الموت لا بد منه، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا، ونحرق أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها دينارًا واحدًا ولا درهمًا، ولا تسبون وتأسرون رجلًا ولا امرأة.

« وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصحن والمسجد الأقصى وغيرها من المواضع.

« ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير.

« ولا نترك لنا دابة ولا حيوانًا إلّا قتلناه.

« ثم خرجنا إليكم كلنا، وقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه.

« وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله... ونموت أعزاء أو نظفر كرامًا »!!!

القدس تستسلم للبطل؟!

فاستشار صلاح الدين أصحابه... فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان...

فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج...

فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير... يستوي فيه الغني والفقير... والطفل من الذكور والبنات دينارين... والمرأة خمسة دنانير...

فمن أدى ذلك إلى أربعين يومًا فقد نجا... ومن انقضت الأربعون يومًا عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكًا...

وسلمت المدينة يوم الجمعة... السابع والعشرين من رجب...

وكان يومًا مشهودًا...

ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار مدينة القدس!!!

وعيّن صلاح الدين على أبواب المدينة... في كل باب أمينًا من القواد ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم من الفدية!!!

ماذا كان في القدس؟!

وكان فيه على الضبط... ستون ألف رجل... ما بين فارس وراجل...

سوى من يتبعهم من النساء والولدان...

ولا يعجب السامع من ذلك... فإن البلد كبير... واجتمع إليه من تلك النواحي... من عسقلان وغيرها... والداروم والرملة وغزة وغيرها من القرى... بحيث امتلأت الطرق والكنائس...

وكان الإنسان لا يقدر أن يمشي!!!

وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل... وزن عنهم ثلاثين ألف دينار...

وأخذ أسيرًا ستة عشر ألف آدمي... ما بين رجل وامرأة وصبي...

واستوهب جماعة من صلاح الدين عددًا من الفرنج... فوهبهم لهم!!!

صلاح الدين يعفو عن الملكات؟!

وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم... وقد ترهبت وأقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير... ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم...

فطلبت الأمان لنفسها ومن معها... فأمنها... وسيرها!!!

سيبيللا ملكة القدس؟!

وكذلك أيضًا أطلق ملكة القدس... سيبيللا... التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين... قد ملك الفرنج بسببها... ونيابة عنها كان يقوم بالملك...

وأطلق مالها وحشمها... واستأذنته في المسير إلى زوجها... وكان حينئذ محبوسًا بقلعة نابلس...

فأذن لها... فأتته... وأقامت عنده!!!

وأرملة البرنس أرناط؟!

وأتته أيضًا امرأة للبرنس أرناط... صاحب الكرك... وهو الذي قتله صلاح الدين بيده يوم المصاف بحطين...

فشفعت في ولد لها مأسور...

قال لها صلاح الدين: إن سلمتِ الكرك أطلقته...

فسارت إلى الكرك... فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلموه...

فلم يطلق ولدها...

ولكنه أطلق مالها ومن تبعها!!!

لا أغدر به؟!

وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج...
ومعه من الأموال ما لا يعلمه إلّا الله...
فلم يعرض له صلاح الدين!!!
فقيل له ليأخذ ما معه... يقوي به المسلمين...
فقال: لا أغدر به!!!
ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير!!!
وسير الجميع ومعهم من يحميهم... إلى مدينة صور...

قبة الصخرة؟!

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب...
فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة... تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب...
فحين صعدوا... صاح الناس كلهم صوتًا واحدًا... من البلد ومن ظاهره... المسلمون والفرنج...
أما المسلمون فكبروا فرحًا...
وأما الفرنج فصاحوا تفجعًا وتوجعًا...
فسمع الناس صيحة... كادت الأرض أن تميد بهم لعظمتها وشدتها!!!

البطل يصلي في المسجد الأقصى؟!

فلما ملك البلد... وفارقه الكفار... أمر صلاح الدين إعادة الأبنية إلى حالها القديم...

فإن الداوية... فرسان المعبد... بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها... وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم... فأعيد إلى الحال الأول...

وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس... ففعل ذلك أجمع...

ولما كان الجمعة الأخرى... رابع شعبان...

صلى المسلمون فيه الجمعة... ومعهم صلاح الدين...

وصلى في قبة الصخرة!!!

مرسوم بتعيين الخطيب؟!

وكان الخطيب والإمام... محي الدين الزكي... قاضي دمشق...

ولما أذن المؤذنون للصلاة... قبل الظهر... كادت القلوب تطير من الفرح في ذلك الحال...

ولم يكن عُين خطيب...

فبرز من السلطان... المرسوم الصلاحي... وهو في قبة الصخرة...

أن يكون القاضي محي الدين اليوم خطيبًا...

فلبس الخلعة السوداء...

وخطب الناس خطبة سنية... فصيحة بليغة...

ذكر فيها شرف البيت المقدس...

وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات...

وما فيه من الدلائل والأمارات!!!وكان أول ما قال: ﴿فقُطع دابرُ القومِ الذين ظَلَمُوا والحمْدُ لله رَبِّ العالمين﴾[1]...

ثم ذكر تمام الخطبتين...

ثم دعا للخليفة الناصر العباسي...

ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين!!!

تنظيم المسجد الأقصى؟!

ثم رتب صلاح الدين... خطيبًا وإمامًا... برسم الصلوات الخمس...

وأمر أن يعمل له منبر...

فقيل له إن نور الدين محمود كان قد عمل بحلب منبرًا...

وأمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه...

فعمله النجارون في عدة سنين... لم يعمل في الإسلام مثله...

فأمر بإحضاره... فحمل من حلب... ونصب بالقدس...

ولما فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة... تقدم بعمارة المسجد الأقصى... واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه...

فشرعوا في عمارته...

ورتب القراء... وأدر عليهم الوظائف الكثيرة...

فعاد الإسلام هناك غضًا طريًا... وهذه المكرمة... من فتح بيت المقدس... لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب... رضي الله عنه...

غير صلاح الدين رحمه الله...

وكفاه ذلك فخرًا وشرفًا!!!

---

(١) سورة الأنعام، آية ٤٥.

ملوك أوروبا . . .
يتدفقون . . .
للانتقام . . . ؟!

الأسطول المصري يقاتل أسطول الفرنج؟!

وأقبل الأسطول المصري... وفيه المؤن الكثيرة لأهل عكا...

فعبأ الفرنج أسطولهم... ليقاتلوا أسطول المسلمين...

فنهض السلطان بجيشه ليشغلهم عنهم...

وقاتلهم أهل عكا أيضًا...

واقتتل الأسطولان في البحر... وكان يومًا عسيرًا... وحربًا في البحر والبر...

فظفرت الفرنج بسفينة واحدة من الأسطول الإسلامي...

وسلّم الله الباقي... فوصل إلى عكا بما فيه من المؤن... وكانت حاجتهم قد اشتدت إليها جدًا... بل إلى بعضها!!!

ماذا عن فريدريك ملك الألمان؟!

وأما ملك الألمان المتقدم ذكره... فإنه أقبل في عُدد وعَدد كثير جدًا... قريب من ثلاثمائة ألف مقاتل... وفي خطته خراب البلد... وقتل أهلها من المسلمين... والانتصار لبيت المقدس... وأن يأخذ البلاد إقليمًا بعد إقليم... حتى مكة والمدينة!!!

فما نال من ذلك شيئًا... فكانوا يتخطفون كما يتخطف الحيوان... حتى اجتاز ملكهم بنهر شديد الجريان... فدعته نفسه أن يسبح فيه... فلما صار فيه حمله الماء إلى شجرة فشجت رأسه، وأخمدت أنفاسه!!!

فأقيم ولده الأصغر في الملك... وقد تمزق شملهم...

ثم أقبلوا لا يجتازون ببلد إلّا قتلوا فيه...

فما وصلوا إلى أصحابهم الذين على عكا إلّا في ألف فارس!!!

ونهض صاحب الألمان بالجنود الفرنج... فصادم به جيش المسلمين... فجاءت جيوش المسلمين بأكملها إليه... فقتلوا من الفرنج خلقًا كثيرًا...

هجوم مفاجئ على مخيم السلطان؟!

وهجموا مرة على مخيم السلطان بغتة... فنهبوا بعض الأمتعة...

فنهض الملك العادل أبو بكر وكان قائد الميمنة ـ فركب في أصحابه...

وأمهل الفرنج حتى توغلوا بين الخيام...

ثم حمل عليهم بالرماح والسيوف...

فهربوا بين يديه... فما زال يقتل منهم جماعة بعد جماعة...

حتى قيل انه قتل منهم فيما بين الظهر إلى العصر عشرة آلاف!!!

هذا وطرف الميسرة لم يشعر بما جرى... بل نائمون وقت القائلة في خيامهم!!!

وإنما قتل من المسلمين عشرة أو دونهم!!!

وقد أوهن هذا جيش الفرنج وأضعفهم... وكادوا يطلبون الصلح، وينصرفون عن البلد!!!

فاتفق قدوم مدد عظيم إليهم من البحر... مع ملك يقال له «كيد

هرى»... ومعه أموال كثيرة... فأنفق فيهم، وعزم عليهم، وأمرهم أن يبرزوا معه لقتال المسلمين...

وجاءت كتب صاحب الروم من القسطنطينية يعتذر لصلاح الدين من جهة ملك الألمان... وأنه لم يتجاوز بلده باختياره... وأنه تجاوزه لكثرة جنوده!!!

لماذا تأخر النصر؟!

وكان القاضي الفاضل بمصر... يدير الممالك بها... ويجهز إلى السلطان ما يحتاج إليه من الأموال... وعمل الأسطول...

فأرسل إلى السلطان كتابًا يذكر فيه... أن سبب هذا التطويل في الحصار... كثرة الذنوب... وارتكاب المحارم بين الناس... فإن الله لا ينال ما عنده إلّا بطاعته...

ومنها كتاب يقول فيه: إنما أتينا من قبل أنفسنا... ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا... ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا...

رحم الله القاضي الفاضل... من إنسان ما أفصحه!.. ومن وزير ما كان أنصحه!.. ومن عقل ما كان أرجحه!!!

وصول فيليب ملك فرنسا؟!

وفي سنة ٥٨٧ هـ ـ ١١٩١ م... وصلت أمداد الفرنج في البحر... إلى الفرنج الذين على عكا...

وكان أول من وصل منهم... الملك فيليب... ملك فرنسا...

وهو من أشرف ملوكهم نسبًا... وإن كان ملكه ليس بالكثير...

ولم يكن في الكثرة التي ظنوها... فقويت به نفوس مَن على عكا منهم... ولحوا في قتال المسلمين الذين فيها...

وكان صلاح الدين قريبًا... فكان يركب كل يوم... ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال... عن مزاحفة البلد...

حياة عجيبة... إن البطل في قتال مستمر... كل يوم!!!

معركة بحرية؟!

وأرسل السلطان إلى الأمير أسامة... محافظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من المراكب... وتشحينها بالمقاتلة... وتسييرها في البحر... ليمنع الفرنج من الخروج إلى عكا...

ففعل ذلك... وسير السفن في البحر... فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالًا من أصحاب ملك انجلترا... وكان قد سيرهم بين يديه... وتأخر هو بجزيرة قبرص ليملكها...

فاقتتلت سفن المسلمين مع سفن الفرنج.

فاستظهر المسلمون عليهم... وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال... وأسروا الرجال!!!

وصول ريتشارد... قلب الأسد... ملك انجلترا؟!

ثم وصل ملك انجلترا...

وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرص... وأخذها من الروم...

ثم سار إلى عكا... في خمس وعشرين قطعة بحرية... مملوءة رجالًا وأموالًا...

فعظم به شر الفرنج... واشتدت نكايتهم في المسلمين...

فكان رجل زمانه شجاعة ومكرًا وجلدًا وصبرًا...

وبلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثيل لها...

ولما وردت الأخبار بوصوله... أمر صلاح الدين بتجهيز قوة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والأقوات...

فتجهزت وسيرت من بيروت... وفيها سبعمائة مقاتل...

فلقيها ملك انجلترا مصادفة... فقاتلها وصبر من فيها على قتاله... فلما أيسوا من الخلاص...

أمر قائد المجموعة البحرية... فخرقها خرقًا واسعًا لئلّا يظفر الفرنج بمن فيها... وما معهم من الذخائر... فغرق جميع ما فيها...

وكانت عكا محتاجة إلى رجال!!!

سقوط عكا؟!

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة... استولى الفرنج على مدينة عكا...

وكان ذلك بعد مناوشات بين الفريقين!!!

قلب الأسد يواجه صلاح الدين؟!

لما فرغ الفرنج من إصلاح أمر عكا... ساروا نحو حيفا على شاطئ البحر لا يفارقونه...

وساروا حتى أتوا حيفا فنزلوا بها...

وكان بينهم وبين صلاح الدين... مناوشات... ومعارك... وقتل من هؤلاء وهؤلاء!!!

ثم سار صلاح الدين إلى القدس... فأخذ في تنظيمه... وترتيب ما فيه من سلاح وذخائر...

البطل صلاح الدين . . .

يوافق . . .

على الهدنة . . . ؟!

ثم إن الفرنج...

أظهروا العزم على قصد بيت المقدس...

فسار صلاح الدين إلى الرملة... وقرب من الفرنج... وبقي عشرين يومًا ينتظرهم... فلم يبرحوا...

وأقبل الشتاء... وحالت الأحوال والأمطار بينهما!!!

صلاح الدين... يستعد بالقدس؟!

لما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم... والأمطار متوالية متتابعة... والناس منها في ضنك وحرج... ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر في تعب دائم...

وكان كثير من العساكر قد طال انتظارها... فأذن لهم في العود إلى بلادهم... للاستراحة والإراحة...

وسار هو إلى بيت المقدس... فيمن بقي معه...

فنزلوا جميعًا داخل البلد فاستراحوا مما كانوا فيه...

ونزل هو بدار الأقصى!!!

قدوم الجيش المصري؟!

وقدم إليه جيش مصر... قائدهم الأمير أبو الهيجاء... فقويت نفوس المسلمين بالقدس...

وسار الفرنج من الرملة... على عزم قصد القدس...

وكان صلاح الدين لما دخل القدس... أمر بعمارة سوره... وأمر بحفر خندق حوله...

وسلم كل برج إلى أمير يتولى عمله...

وعمل صلاح الدين بنفسه في تحصين بيت المقدس هو وأولاده... وعمل فيه القواد والقضاة والعلماء والصالحون...

فكان يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة... فيقتدي به الجنود...

الصليبيون... يتقهقرون إلى الرملة؟!

ثم عاد الفرنج إلى الرملة... وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ما يريدون من الساحل...

فلما أبعدوا عنه... كان المسلمون يخرجون عليهم... فيقطعون الطريق... ويغنمون ما معهم من إمدادات للجيش...

فاستقر رأيهم على التقهقر إلى الرملة... وعادوا خائبين!!!

الصليبيون... يهابون لقاء البطل؟!

استهلت سنة ٥٨٨ هـ - ١١٩٢ م...

والسلطان صلاح الدين مخيم بالقدس...

وقد قسم قيادة السور بين أولاده وأمرائه... وهو يعمل فيه بنفسه...

والفرنج حول البلد من ناحية عسقلان... لا يتجاسرون أن يقربوا البلد... من الحرس الذين حول القدس...

إلّا أنهم على نية محاصرة القدس مصممون...

وفي جمادى الأولى استولى الفرنج على قلعة الداروم... فخربوها... وقتلوا خلقًا كثيرًا من أهلها... وأسروا طائفة منهم...

ثم أقبلوا جملة نحو القدس...

فبرز إليهم السلطان... في جيشه...

فلما تراءى الجمعان... نكص جيش الصليبيين راجعين... فرارًا من القتال والنزال...

وعاد السلطان إلى القدس!!!

مفاجأة... من ريتشارد؟!

ثم إن ريتشارد ملك الانجليز... وهو أكبر ملوك الفرنج ذلك الحين...

ظفر ببعض فلول المسلمين... ففاجأهم ليلًا... فقتل منهم خلقًا كثيرًا...

وأسر منهم خمسمائة أسير... وغنم منهم شيئًا كثيرًا من الأموال والخيل والجمال والبغال...

وكان جملة الجمال ثلاثة آلاف بعير!!!

فتقوى الفرنج بذلك...

وساء ذلك السلطان مساءة عظيمة جدًا...

وأقبل ريتشارد وقد قويت نفسه جدًا... وصمم على محاصرة القدس...

وأرسل إلى ملوك الفرنج الذين بالساحل... فاستحضرهم ومن معهم من المقاتلة...

فتعبأ السلطان لهم وتهيأ...

وأكمل السور... وعمر الخنادق... ونصب المجانيق... وأمر بتغوير ما حول القدس من المياه...

مؤتمر عسكري عاجل... برئاسة البطل؟!

وأحضر السلطان أمراءه ليلًا... فاستشارهم فيما دهمه من هذا الأمر الفظيع الأليم...

فأفاضوا في ذلك... وأشار كل برأيه...

وأشار العماد الكاتب... أن يتحالفوا على الموت عند الصخرة... كما كان الصحابة يفعلون...

فأجابوا إلى ذلك...

هذا كله والسلطان ساكت واجم يفكر...

فسكت القوم كأنما على رؤوسهم الطير!!!

البطل ... يلقي خطابًا تاريخيًا ؟!

ثم قال:

« الحمد لله ... والصلاة والسلام على رسول الله ...

« اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته.

« وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم في ذممكم معلقة.

« والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم.

« وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم.

« فإن وليتم والعباد بالله ... طوى البلاد ... وأهلك العباد ... وأخذ الأموال والأطفال والنساء ... وعبد الصليب في المساجد ... وعزل القرآن منها والصلاة ...

« وكان ذلك كله في ذممكم ...

« فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله ... وأكلتم مال بيت المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم ... وتنصروا ضعيفهم ...

« فالمسلمون في سائر البلاد متعقلون بكم ... والسلام » !!!

فماذا كان جواب القادة؟!!

البيعة ... على الموت؟!

فانتدب لجوابه أحد عظماء القادة... سيف الدين المشطوب وقال: يا مولانا... نحن مماليكك وعبيدك... وأنت الذي أعطيتنا وكبرتنا وعظمتنا... وليس لنا إلّا رقابنا... ونحن بين يديك... والله ما يرجع أحد منا عن

نصرك حتى يموت!!!

فقال الجماعة مثل ما قال... ففرح السلطان بذلك...

وطاب قلبه... ومدّ لهم سماطًا حافلًا...

وانصرفوا من بين يديه على ذلك!!!

البطل... يجأر إلى ربه؟!

وبات صلاح الدين ليلته... مهمومًا كئيبًا... يفكر ويفكر!!!

فلما كان نهار الجمعة... حضر إلى صلاة الجمعة...

وأذن المؤذن للظهر... وقام فصلى ركعتين بين الأذانين...

وسجد... وابتهل إلى الله تعالى ابتهالًا عظيمًا...

وتضرع إلى ربه...

وتمسكن... وسأله فيما بينه وبينه... كشف هذه الضائقة العظيمة!!!

شقاق... في قيادة الأعداء؟!

فلما كان يوم السبت من الغد... جاءت الكتب من الحرس الذي حول البلد...

بأن الفرنج قد اختلفوا فيما بينهم!!!

فقال ملك فرنسا: إنا إنما جئنا من البلاد البعيدة... وأنفقنا الأموال العديدة... في تخليص بيت المقدس... ورده إلينا... وقد بقي بيننا وبينه مرحلة!!!

وقال الإنجليز: إن هذا البلد شقّ علينا حصاره... لأن المياه حوله قد عدمت... وإلى أن يأتينا الماء من المشقة البعيدة... يعطل الحصار... ويتلف الجيش...

ثم انتهى رأيهم على الرحيل!!!

فانسحبوا راجعين... فساروا حتى نزلوا على الرملة...

وبرز السلطان بجيشه إلى خارج القدس...

وسار نحوهم... خوفًا أن يسيروا إلى مصر... لكثرة ما معهم من الخيل والأموال...

فخذلهم الله عن ذلك!!!

ريتشارد... يلحّ في طلب الصلح؟!

وترددت الرسل من الإنجليز إلى السلطان في طلب الأمان... ووضع الحرب بينه وبينهم ثلاث سنين...

على أن يعيد لهم عسقلان... ويهب لهم كنيسة بيت المقدس... وأن يمكن النصارى من زيارتها وحجها بلا شيء...

فامتنع السلطان من إعادة عسقلان... وأطلق لهم الكنيسة... وفرض على الزوار مالًا يؤخذ من كل منهم...

فامتنع الإنجليز... إلّا أن تعاد لهم عسقلان...

فصمم السلطان على عدم الإجابة...

ثم ألح ريتشارد في طلب الصلح... وأن تكون عسقلان داخلة في صلحهم...

فامتنع السلطان!!!

البطل... يكرم غريمه؟!

ثم حصل للملك الإنجليز بعد ذلك مرض شديد...

فبعث إلى السلطان... يطلب فاكهة وثلجًا...

فأمده بذلك... من باب الكرم!!!

ثم عوفي... وتكررت الرسل منه... يطلب من السلطان المصالحة... لكثرة شوقه إلى أولاده وبلاده!!!

الهدنة؟!

وطاوع السلطان على ما يقول...

وترك طلب عسقلان... ورضي بما رسم به السلطان!!!

وكتب كتاب الصلح بينهما في شعبان...

ووقع المواثيق كل ملك من ملوكهم...

وحلف القواد من المسلمين... ووقعوا...

واكتفى من السلطان بالقول المجرد... كما جرت به عادة السلاطين!!

النص الكامل... للهدنة؟!

وفي ٢٠ شعبان سنة ٥٨٨ هـ - ١١٩٢م...

عقدت بين المسلمين والفرنج... هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر تبدأ من ذلك التاريخ...

وفرح كل من الفريقين فرحًا شديدًا... وأظهروا سرورًا كثيرًا...
ووقعت الهدنة على وضع الحرب... على أن:
١ ـ يسمح للنصارى بزيارة بيت المقدس... دون ضريبة يدفعونها...
٢ ـ على أن يقرهم على ما بأيديهم من البلاد الساحلية...
٣ ـ وللمسلمين ما يقابلها من البلاد الجبلية!!
وحضر رسل الفرنج لذلك... وعقدوا الهدنة!!!

الفضل... ما شهدت به الأعداء؟!

وكان في جلة من حضر عند صلاح الدين... إليان بن بارزان... الذي كان يملك الرملة ونابلس...
فلما حلف صلاح الدين... قال له:
« ما عمل أحد في الإسلام ما عملت
« ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة -
« فإننا أحصينا من خرج إلينا في البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف رجل
« ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد!!!
« بعضهم قتلتهم أنت
« وبعضهم مات
« وبعضهم غرق »!!!
ولما انفصل أمر الهدنة...
أذن صلاح الدين للفرنج في زيارة بيت المقدس...
فزاروه... وتفرقوا...
وعادت كل طائفة إلى بلادها!!!

وفاة البطل؟!

وعاد البطل إلى دمشق...
وبعد قليل انتقل إلى جوار ربه...
سنة ٥٨٩ هـ... وكان له من العمر...
سبع وخمسون سنة!!!

ماذا . . .

بعد صلاح الدين . . . ؟!

الابطال لا يتكررون بكثرة... وإنما هم دائما نُدرة... اذا ظهر بطل... فلا تنتظر بطلا بعده إلا بعد حين!!!

وهذا ما حدث فقد كانت المدة بين معركة «حِطّين» بقيادة البطل صلاح الدين... ومعركة «عين جالوت» بقيادة البطل قُطُز... كانت ٧٥ سنة!!!

أي على أي أُمّة اذا ظهر فيها بطل يقودها الى النصر... عليها ألا تنتظر ظهور بطل غيره سريعا...

لأن الأبطال سلعة غالية... نادرة... لا يظهرون إلا على تباعد!!!

فماذا بعد صلاح الدين؟!!

وكيف كان مسار الأحداث... من صلاح الدين... حتى ظهور البطل الذي جاء من بعده... السلطان قُطُز؟!!

دور الانهيار الصليبي؟!

«على الرغم[1] من أن الهدنة العامة التي عقدها صلاح الدين مع الصليبيين أعطتهم فرصة للبقاء في هذه البلاد... وعلى الرغم من أن بقاءهم استمر حوالي مائة سنة أخرى بعد وفاة صلاح الدين... وعلى الرغم من استمرار حملاتهم على مصر خاصة... إلا أن حروب صلاح الدين سجلت بداية دور الانهيار الصليبي في العالم الاسلامي...

«والملاحظ في هذا الدور الذي استمر حوالي تسعين سنة... أن مركز الثقل في الحروب الصليبية قد انتقل من بلاد الشام الى مصر... ذلك أن أوروبا أدركت ان مركز الثقل في هذا الصراع هي مصر لمواردها الطبيعية والبشرية والاقتصادية... فقرروا انهاء الحروب الصليبية لصالحهم في مصر...

المصريون يحطمون غزوات الصليبيين؟!

«ولكن تكسرت جميع محاولات وغزوات الصليبيين لمصر على صخرة المقاومة البطولية التي أبداها المصريون...

---

(١) مختصرا من كتاب «وثائق الحروب الصليبية»

مصر والشام يطردان آخر جندي صليبي؟!

«وبعد فترة اخذت مصر وبلاد الشام المتحدتان في دولة واحدة تحت حكم المماليك زمام المبادرة في الحروب الصليبية... وأوصلاها الى نتيجتها الطبيعية وهي تحرير بلاد الشام من الحكم الصليبي... وطرد آخر جندي صليبي عن هذه البلاد سنة ٦٩٠ هـ الموافقة لسنة ١٢٩١ م».

المَغُول ـ (التَّتَار) . . .

يفتحون العالَم . . .

ويدمرونه تدميرا . . . ؟!!

استنزفت الحروب الصليبية قوى المسلمين في معارك متتابعة...
ثم كانت الطامة الكبرى... والداهية العظمى...
حيث ظهرت في العالم قوة جديدة جبَّارة... لا تعرف الا التدمير والذبح والإبادة...
ولا ترضى الا بالاستسلام التام ممن تهاجمهم... أو الإبادة التامة...
وإليك فكرة عن هؤلاء الجبابرة:

١ - المغول والتتار:[١]

كثيرًا ما تستخدم تسمية «المغول» كاسم مرادف لاسم «التتار»، وفي الواقع فالمغول والتتار فرعان متمايزان لأصل واحد. وقد يكون من الضروري معرفة هذا التمايز من خلال العودة لنشأة إمبراطورية المغول التي أسسها شاب مغولي اسمه «تيموجين»، وعرف في التاريخ بعدئذ باسم «جنكيز خان» والذي وُلد في سنة ١١٦٧ م - أي قبل عشرين سنة من استرداد «صلاح

(١) مختصرًا من كتاب «المظفَّر قُطز».

الدين» بيت المقدس للمسلمين. وكان والد «تيموجين» زعيماً مغولياً اسمه «يسوكاي» ووالدته «هويلون» وقد وُلد في موضع على شاطئ نهر «أونون» في شمالي شرقي آسيا. ولم يكن المغول في تلك الفترة أكثر من مجموعة من القبائل الضاربة في أعالي نهر «آمور» التي تعيش في حرب دائمة بينهم وبين جيرانهم النازلين إلى الشرق منهم - وهم التتار -. والمعروف أن «كابل خان» جد «يسوكاي» نظم هذه القبائل في حلف ضعيف لم يلبث أن تمزق بعد وفاته، مما ساعد إمبراطور الصين الشمالية «كين» على توطيد سلطته في كل المنطقة. ولم يرث «يسوكاي» إلا شطرًا صغيرًا من الحلف القديم، غير أنه زاد في سلطانه وذيوع شهرته، ما أنزله من الهزيمة ببعض قبائل التتار وإخضاعها. وما حدث من تدخله في أمور «خان الكرايث» الذي يعتبر أعظم جيرانه المباشرين مدنية. و«الكرايث» شعب شبه بدوي، ينتمي إلى أصل تركي، استقر بالأقاليم الواقعة حول نهر «أورخون» في أقصى أطراف منغوليا الحالية.

وفي أوائل القرن الحادي عشر تحول ملكهم ومعظم رعاياه إلى الديانة المسيحية - على المذهب النسطوري - وأدى تحول «الكرايث» إلى المسيحية أن أضحوا على اتصال بالترك «الأويغور»، الذين كان بينهم عدد كبير من النساطرة. وسبق للأويغور أن أقاموا حضارة مستقرة في موطنهم في وادي «نهر التاريخ» ومنخفض «طورفان»، وابتكروا أبجدية للغة التركية استندت إلى الحروف السريانية. وفي الأزمنة المتقدمة سادت بينهم الديانة المانوية، على أن المانويين نزعوا تحت تأثير الصينيين إلى أن يتحولوا إلى البوذية.

وبعد أن سلطان «الأويغور» أخذ في التداعي، فإن مدنيتهم امتدت إلى «الكرايث» و«النايمان» نظرًا لأن بلاد «الأويغور» تقع بين هذين الشعبين التركيين.

وعندما مات «كورياكوس» ابن «ميرجوزخان» - خان الكرايث - في

سنة ١٢٧٠ م صادف ابنه « طغرل » بعض العقبات في الاستحواذ على ملكه نتيجة معارضة أخوته وأعمامه. على أنه ظفر بحروبه على أخوته وأقاربه وذلك بفضل مساعدة « يسوكاي » الذي صار أخًا له بحكم ما تعاهدا عليه وأقسما من يمين. فهيأت هذه الصداقة لـ« يسوكاي » مكانة رفيعة بين زعماء المغول، غير أنه مات قبل أن يستقر « خانًا أعظم » للمغول. إذ دس له السم بعض التتار الرحل الذين كان يشاركهم طعام العشاء، ولم يتجاوز ابنه الأكبر « تيموجين » أو « جنكيزخان » وقتذاك التاسعة من عمره. على أن ما اشتهرت به « هويلون » أرملة « يسوكاي » من الكفاءة هو الذي حفظ لابنها « تيموجين » قدرًا من السلطان على قبائل أبيه.

وأمضى « تيموجين » طفولة عاصفة إذ برهن على كفاءته القيادية منذ كان صغيرًا. فلم تكن تأخذه رحمة بمنافسيه ولا رأفة حتى لو كانوا من أقربائه وأسرته.

ففي أثناء الحروب التي ظفر فيها بالسيادة على المغول وقع لفترة من الزمن أسيرًا في أيدي قبيلة « تايجيوت » كما أن « بؤركة » التي تزوجها وهو في السابعة عشرة من عمره، ظلت بضعة شهور في أسر « الترك المركيت » النازلين عند بحيرة « بايكال »، ولهذا حامت الشكوك حول شرعية بنوة ولدها الأكبر « جوجي » الذي تمت ولادته أثناء أسرها، على أن توالي انتصارات « تيموجين » يرجع إلى حد كبير إلى تحالفه مع « طغرل » خان الكرايث الكبير، الذي بلغ من محبته له أنه اعتبره « تيموجين » والدًا له، وقد ساعده « طغرل » في حروبه مع المركيت.

وحوالي سنة ١٢٩٤م تم اختيار « تيموجين » ملكًا أو خانًا على جميع المغول، واتخذ اسم « جنكيز » أي « القوي ». ولم يلبث أن تلا ذلك اعتراف امبراطور الصين « كين » بـ « جنكيزخان »، على أنه « خانًا أعظم » على المغول، وظفر بتحالفه لمناهضة التتار الذين كانوا يهددون

حدود الصين. وأدت حرب خاطفة إلى خضوع التتار لحكم « جنكيزخان ». ولما جرى طرد « طغرل خان » من عرش الكرايث سنة ١١٩٧ م كان « جنكيز خان » هو الذي أعاده للحكم، ثم انحاز « جنيكز خان » بقواته سنة ١١٩٩ م إلى « طغرل خان » فأنزل الهزيمة بـ « النايمان الترك ».

واستمر « جنكيز خان » في إخضاع « الترك النايمان » ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى فرض « جنكيز خان » سيطرته على كل القبائل النازلة بين حوض نهر « التاريم » ونهر « أمور » وسور الصين العظيم. وأصبح بالإمكان بعد ذلك عقد مجلس أو « قوريلتاي » لكل زعماء القبائل التابعة له في سنة ١٢٠٦ م، وعلى شاطئ نهر « اونون » حيث أعلن موافقته على ما اتخذه « جنكيز خان » من اللقب الملكي. كما أعلن أنه ينبغي أن تعرَف كل أقوامه في مجموعها باسم « المغول ».

وانصرف « جنكيز خان » لتنظيم امبراطوريته التي تألفت من مجموعة القبائل التي لم يحاول التدخل في شؤونها الداخلية، وكل ما فعله هو أنه فرض أسرته المعروفة باسم « التن اوروك » أي « القبيلة الذهبية ». وأقام حكومة مركزية يسيطر عليها رجال حاشيته وأصدقاؤه المخلصون، وجعل للعشائر الحرة أعدادًا كبيرة من الأرقاء الذين اتخذهم من القبائل التي قاومته ثم قهرها، ومنح أقاربه وأصدقاءه الألوف من الأرقاء. ففي « القوريلتاي » الذي انعقد سنة ١٢٠٦ م، بذل لكل من أمه « هويلون » وأخيه « تيموجيه » أو « تشين » عشرة آلاف أسرة ملكًا له، وجعل لكل من أبنائه الصغار خمس أو ست آلاف أسرة. أما القبائل أو المدن التي خضعت له دون قتال، فإنه لم يتدخل في أمرها بل تركها وشأنها، طالما احترمت قوانينه الثقيلة الوطأة، وأدت لجباة الضرائب ما طلبه من أتاوة باهظة.

وأصدر « جنكيز خان » مجموعة القوانين المعروفة في التاريخ باسم « الياسة » أو « الياساك » والتي نسخت كل ما سبق من قوانين العرف في

«الاستبس»، وذلك بهدف ربط الأقاليم بعضها ببعض. وقد صدرت «الياسة» مجزأة طوال حكمه وحددت ما للقبائل وزعمائها من حقوق وامتيازات، مع تحديد ما هو مقرر «للخان» من شروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات وقواعد نظام الضرائب، فضلًا عن مبادئ القانون الجنائي والمدني والتجاري.

ولم يكد «جنكيز خان» ينظم إدارة امبراطوريته حتى شرع في توسيع حدودها. فقد أضحى لديه جيش ضخم أولى اهتمامًا كبيرًا لتنظيمه. إذ إن كل أفراد القبيلة الذين يتراوح عمرهم بين الرابعة عشرة سنة والستين سنة يلتزمون بالخدمة العسكرية وفقًا للعرف المغولي والتركي. ولم تكن حملات الصيد في كل شتاء لامداد الجيش والبلاط باللحوم، أكثر من مناورات لتدريب المقاتلين بصورة مستمرة. وكانت القبائل تؤلف جيشًا من الفرسان والرماة والرماحة الذين يستخدمون الخيول السريعة العدو، ودرج الرجال والفرسان منذ الولادة على ممارسة الحياة القاسية والقيام بأسفار بعيدة عبر الصحاري، وليس لديهم إلا قدر قليل من الزاد والماء. وكان هذا الارتباط بين سرعة الحركة والنظام والأعداد الضخمة هو الطابع المميز لجيش المغول.

استطاع «جنكيز خان» أن يستثمر التناقضات في الدول المجاورة له، فسيطر على مملكة «كين» في شمال الصين وضم إليه منشوريا واعترفت كوريا بسيادته. وأصبح باستطاعته التوجه نحو الجنوب الغربي لتركيز الجهد ضد دولة المسلمين التي وصلت خلال تلك الفترة إلى أوج قوتها بقيادة «محمد خوارزم شاه». وكان هذا قد نظم الدولة الخوارزمية بحيث باتت تمتد من كردستان والخليج العربي حتى بحر «آدال» وهضبة «بامير» ونهر «السند». ولم يكن «محمد خوارزم شاه» بالرجل الذي يتسامح مع منافس يتهدده.

ورغم تبادل السفارات بين «جنكيز خان» و«محمد خوارزم شاه»، إلا أن

«جنكيز خان» أخذ في استثارة منافسه، وطلب «جنكيز خان» - باعتباره خانًا على الشعوب التركية المغولية - إلى الأمير الخوارزمي أن يعتبره سيدًا عليه.

وحدث في سنة ١٢١٨ م أن ارتحلت من منغوليا قافلة كبيرة من التجار المسلمين وبرفقتهم مائة من المغول تقرر إرسالهم في سفارة خاصة إلى البلاط المغولي، فلما بلغت القافلة مدينة «اوترار» الواقعة على نهر «سيحون» - في أملاك محمد خوارزم شاه - أجهز حاكم «أوترار» على المسافرين وسلب بضاعتهم التي جرى حمل نصفها إلى «محمد خوارزم شاه»، وأصبحت الظروف مهيأة أمام «جنكيز خان» للنهوض وقتال الخوارزمية. وكان ذلك مشروعًا بالغ الخطورة. إذ كان بوسع «محمد خوارزم شاه» أن يزج في ميدان القتال نصف مليون رجل. كما أن «جنكيز خان» سيقاتل على مسافة تبعد ألف ميل عن بلاده.

غادر الجيش المغولي المكون من مائتي ألف مقاتل بقيادة «جنكيز خان» معسكره عند نهر «أرتيش» في أواخر صيف سنة (١٢١٩ م - ٦١٦ هـ). وانضم إليه أثناء سيره نحو الغرب أتباعه من الملوك.

ولما كان «محمد خوارزم شاه» يجهل المكان الذي سيوجه منه المغول ضربتهم، فقد عمل على تقسيم جيشه بين خط نهر «سيحون» وممرات «فرغانة»، واحتفظ بالكتلة الرئيسية من جيشه في المدن الهامة بإقليم ما وراء النهر أمثال «بخارى» و«سمرقند». وتوجه الجيش المغولي مباشرة نحو الحوض الأوسط لنهر «سيحون»، فاجتاز النهر عند «اوترار» وتولت قوة من الجيش المغولي حصار المدينة الذي استمر فترة غير قصيرة، في حين هبط قسم من الجيش ليسير مع النهر بهدف مهاجمة الجيش الخوارزمي على ضفتي نهر «سيحون». وتوجهت قوة ثالثة من الجيش صعدًا مع النهر لقطع الطريق على الجيش الخوارزمي في «فرغانة».

وزحف «جنكيز خان» بقواته الأساسية على «بخارى» فوصلها في شهر شباط - فبراير - سنة ١٢٢٠ م - ٦١٧ هـ. فبادر السكان المدنيون على الفور بفتح أبوابها له. على أن الترك المرابطين بالقلعة ظلوا يقاومون بضعة أيام، ثم لقوا مصرعهم عن آخرهم مع الأئمة المسلمين الذين وقفوا إلى جانبهم في القتال. ثم تحرك «جنكيز خان» من بخارى إلى «سمرقند» بينما انسحب «محمد خوارزم شاه» إلى عاصمته في «اورجنده» قرب «خيوه» على نهر «جيحون». وإذ لحق بـ «جنكيز خان» أبناؤه في سمرقند بعد أن استولوا على «أوترار»، بادرت الحامية التركية في سمرقند إلى التسليم على الفور، فأمر «جنكيز خان» بإبادتهم جميعًا. وحاولت فئة من سكان سمرقند المقاومة، غير أن المغول أبادوها أيضًا. وبعث «جنكيز خان» أبناءه لفتح «اورجنده» ولكن حامية المدينة دافعت بعناد ولم تتمكن قوات المغول من اقتحامها إلا بعد شهور عديدة.

وأثناء ذلك تمكن «محمد خوارزم شاه» من التسلل والخروج إلى خراسان ومنها إلى جزيرة صغيرة داخل بحر قزوين حيث قضى نحبه هناك في كانون الأول - ديسمبر - سنة ١٢٢٠ م. وخلال ذلك كان «جلال الدين بن محمد خوارزم شاه» قد لحق بالجيش الخوارزمي في «فرغانة»، ثم تقهقر إلى أفغانستان فأنزل هزيمة ساحقة بالجيش المغولي الذي تم إرساله لقهره وتدمير جيشه وذلك في «بيروان» الواقعة إلى الشمال من جبال «هندوكوش».

أما «جنكيز خان» فعبر نهر «جيحون»، واجتاز «بلخ» التي خضعت له فأبقى عليها، ومنها توجه إلى «باميان» في قلب جبال «هندوكوش» وامتنع الحصن عليه، وفي أثناء الحصار لقي مصرعه حفيده «موتوجين» أحب الناس إليه، فلما سقطت المدينة عنوة، لم يبق على قيد الحياة أحدًا من سكانها.

وفي تلك الاثناء كان ابنه «تولوي» وصهره «توقشتار» يقاتلان في أقصى

الغرب فاستوليا على مدينة «مرو» التي لم يبق على قيد الحياة من سكانها الذكور سوى أربعمائة من الصناع المهرة. ثم سقطت «نيسابور» حيث لقي مصرعه «توقشتار» وتعرضت لنفس المصير الذي تعرضت له «مرو»، حيث أشرفت زوجة «توقشتار» - أرملته - بنفسها على عملية الذبح والإبادة. وتقرر إرسال الصناع من المدينتين - نيسابور ومرو - إلى منغوليا.

وواصل «جنكيز خان» في خريف سنة ١٢٢١ م - ٦١٨ هـ. سيره مخترقًا أفغانستان لمهاجمة «جلال الدين». فحاصره على ضفتي نهر السند. وتحطم الجيش الخوارزمي في معركة حامية الوطيس دارت في ٢٤ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١١٢١ م، واستطاع «جلال الدين» النجاة بعد أن اجتاز نهر السند، فالتجأ إلى ملك «دلهي»، أما أطفاله فوقعوا في أيدي «جنكيز خان» الذي أمر بذبحهم.

أمضى «جنكيز خان» مدة سنة تقريبًا في أفغانستان، وخلال هذه الفترة تمردت مدينة «هراة» التي استسلمت للغزاة دون مقاومة ثم حفزتها المظالم للتمرد - لا سيما بعد انتصار «جلال الدين» على المغول في «بيروان» وظل الجيش المغولي يحاصرها شهورًا عديدة، فلما سقطت في يد المغول في حزيران - يونيو - سنة ١٢٢٢ م - دارت مذبحة رهيبة في كل سكانها الذين يبلغ عددهم مئات الألوف، واستمر القتال أسبوعًا. أما المدن التي دمرت والأراضي التي خلت من النبات، فتولى إدارتها رجال من المغول يدعمهم جند كاف من المغول لإخضاع السكان.

ثم عاد «جنكيز خان» إلى إقليم ما وراء النهر، الذي كان لا يقل خرابًا عن الجهات الأخرى، فنصب على إقليم ما وراء النهر حاكمًا خوارزميًا اسمه «مسعود يلواج» وجعل إلى جانبه مستشارين من المغول ليراقبوه. وأرسل «محمود يلواج» والد «مسعود» ليحكم «بكين»، وكان هدفه من ذلك اجتذاب «مسعود» حتى يزيد في درجة ولائه له.

وعبر « جنكيز خان » نهر « سيحون » مرة أخرى في ربيع سنة ١٢٢٣ م. وأخذ يسير في بطء حتى بلغ نهر « أرتيش » في صيف سنة ١٢٢٤ م، ثم وصل في الربيع التالي إلى موطنه على نهر « تولا ». ولما عاد « جنكيز خان » بجيوشه إلى منغوليا، غادر « جلال الدين » - خوارزم شاه - مأواه في الهند، فالتفت حوله بقايا جيوش أبيه، ولقي « جلال الدين » ترحيبًا كبيرًا في فارس على أنه بطل المقاومة ضد المغول، ولم تحل سنة ١٢٢٥ م حتى صارت له السيطرة على الهضبة الفارسية وأذربيجان. وفي سنة ١٢٢٦ م - ٦٢٣ هـ غدت له السيادة على بغداد.

وإذ أخذت مملكة « جلال الدين خوارزم شاه » تهدد الأيوبيين، فقد صارت عاملًا بالغ الأهمية في سياسة الفرنج بالشام، غير أن المسيحيين بأقصى الشمال لم يلقوا في « جلال الدين » ما يرجونه، إذ أنه أغار سنة ١٢٢٥ م على بلاد « الكرج » وطور أعماله القتالية بعد الانتصار على جيش « الكرج » حتى استولى على « تفليس » عاصمة بلاد « الكرج » وأضاف إلى مملكته جميع وادي نهر « كور ». وأضحت مملكة « الكرج » قاصرة على أملاكها الواقعة على البحر الأسود، فلم تعد بالغة القيمة باعتبارها المعقل الواقع في الشمال الشرقي للعالم المسيحي، وباعتبارها دولة تستطيع أن تتحدى المسلمين في آسيا الصغرى.

توفي « جنكيز خان » في سنة ١٢٢٧ م - ٦٢٤ هـ. وترك إمبراطورية واسعة تمتد من كوريا حتى فارس - إيران - ومن المحيط الهندي إلى سهول سيبيريا المتجمدة. وتميزت فتوحاته بتجردها من الهدف - اللهم إلا هدف التدمير والنهب - كما أنه لم يحفل أبدًا بحياة البشر ولم يهتم بمصائبهم وآلامهم. فقد هلك في حروبه ملايين الأبرياء من سكان المدن. وشهد ملايين الفلاحين حقولهم وبساتينهم تتعرض للدمار والخراب، فقامت إمبراطوريته على بؤس الناس وشقائهم وتعاستهم.

٢ ـ المغول في القوقاز وفي أوروبا:

وقد لا تكون لغزوات المغول في القوقاز وأوروبا علاقة مباشرة فيما تعرض له المسلمون على أيدي المغول ـ التتار ـ. ولكن من الضروري إلقاء نظرة خاطفة على هذه الغزوات إذ أنها تبرز الأسلوب المدمر لهؤلاء البرابرة، بقدر ما تبرز أيضًا خصائص قوات المسلمين وصمودها في مواجهة القوة الطاغية وعدم استسلامها لمنطق القوة المدمرة أو استراتيجية الرعب. في الوقت الذي لم تتمكن فيه قوة ـ في عالم القرون الوسطى ـ من إبراز هذه الفضائل الحربية.

سبقت الإشارة إلى ذلك الجيش الذي أرسله «جنكيز خان» لمطاردة «محمد خوارزم شاه» في سنة ١٢٢١ م بقيادة «سبوتاي» و«جيب». ولكن هذا الجيش لم يتمكن من تحقيق واجبه المباشر حيث تمكن «محمد خوارزم شاه» من النجاة واللجوء إلى الهند. فتابع القائدان «سبوتاي» و«جيب» زحفهما في اتجاه الغرب. وقاما في بداية سنة ١٢٢١ م بالاستيلاء على مدينة «الري» ـ الواقعة قرب مدينة طهران حاليًا ـ ثم سقطت في أيديهما مدينة «قم» ولم يفلت أحد من سكانها من القتل. وحل هذا المصير ذاته بمدينتي «قزوين» و«زنجان»، أما «همذان» فخضعت في الوقت المناسب فنجا أهلها من الإبادة بعد أن أدوا فدية باهظة. واستطاع أمير «أذربيجان» أن يدرأ الهجوم على «تبريز» بما بذله من الأموال، وتجاوزه المغول في شباط ـ فبراير ـ سنة ١٢٢١ م لمهاجمة بلاد الكرج حيث عملوا على تدمير جيش الكرج بعد معركة حاسمة ـ عند «خناني» جنوبي «تفليس» ـ ولم ينهض هذا الجيش بعد ذلك أبدًا. غير أن الغزاة البرابرة استداروا راجعين نحو الجنوب لتأديب «همذان» التي تمردت على طاعتهم، وفي طريقهم دمروا «مراغة» في أذربيجان ونهبوها، ثم دمروا همذان وأبادوا أهلها. وتوقفوا في شمال غربي فارس لقضاء ما بقي من السنة. ثم توجهوا من جديد إلى الشمال في أوائل سنة

١٢٢٢ م، وبعد أن استباحوا الأقاليم الشرقية من بلاد الكرج وأنزلوا الهزيمة بالقوات التي توجهت لوقف تقدمهم، مضوا في سيرهم على امتداد شاطئ بحر قزوين، فاجتازوا دروب قزوين، واتجهوا نحو بلاد «القبجاق» الواقعة بين نهري «الفولغا» و«الدون». فأسرع «القبجاق» إلى التحالف مع القبائل النازلة شمالي جبال القوقاز من «اللان» و«اللكز». غير أنه لما عرض «سبوتاي» و«جيب» على القبيلتين نصيبًا من الغنيمة لم تتدخلا حينما سحق المغول قوات القوقازيين.

وكان «اللان» و«اللكز» يأملان في أن يتحالفا مع الروس حتى ينهضوا لمساعدتهم عندما ظهر أن المغول سيتحولون لقتالهم بعد فراغهم من القوقازيين.

وقام الروس بحشد جيش ضخم قاده أمراء «كييف» و«جاليش» و«شرنيخوف» و«سمولنسك» ولكن المغول نجحوا في تحطيم هذا الجيش على ضفتي نهر «كلكا» قرب بحر «آزوف». ولم يتابع القائدان المغوليان استثمار انتصارهما، بل توجها إلى بلاد القرم، فدمرا ونهبا المحطة التي أقامها الجنويون في «صو لدايا»، ثم انطلقا إلى الشرق ولم يتوقفا إلا ريثما يدمران جيشًا لـ «بلغار» ـ كاما ـ وينهبان بلادهم. ثم لحقا بـ «جنكيز خان» مرة أخرى في أوائل سنة ١٢٢٣ م عند نهر سيحون. وكانت هذه الغزوات ذات أهمية كبرى للمغول إذ أنها كانت بمثابة غزوات استطلاعية اكتسب قادة المغول من خلالها خبرات قتالية جيدة ومعرفة بجغرافية المناطق المختلفة علاوة على ما خلفته من رعب في وسط الشعوب التي تعرضت لهجماتهم.

وعاش العالم فترة من الهدوء في أعقاب موت «جنكيز خان» ريثما أعيد تنظيم أمور الإمبراطورية، إلا أنه لم تمض أكثر من سنتين حتى بدأ التحرك الجديد لسحق ثورة «كين» في شمال الصين. وأخذ الإمبراطور الجديد «اوكيتاي» في التطلع إلى آفاق جديدة.

ظهر جيش مغولي ضخم في بلاد فارس بقيادة «شورماجان» مع بداية

سنة ١٢٣١ م - ٦٢٩ هـ، وأفاد هذا الجيش من مناخ الرعب الذي تركته الهجمة السابقة فتقدم بدون مقاومة من خراسان إلى أذربيجان. وهرب «جلال الدين خوارزم شاه»، ولم يلبث أن توفي في كردستان، وفي وسط ظروف غامضة، وتمزق الجيش الخوارزمي تمزقًا مؤلمًا، والتحق بعواصم البلاد الإسلامية. وأضاف القائد المغولي «شورماجان» كل شمال فارس وأذربيجان إلى الأمبراطورية المغولية، وظل يحكم هذا الإقليم من سنة ١٢٣١ م حتى سنة ١٢٤١ م من معسكره في «موقان» قرب بحر قزوين. ثم أغار «شورماجان» على بلاد الكرج واستولى على الشطر الشرقي منها. وفي سنة ١٢٤٣ م عقدت ملكة الكرج اتفاقًا مع قائد المغول اعترفت فيه بتبعيتها على أن يكون لابنها من بعدها كل مملكة الكرج يحكمها تحت السيادة المغولية.

احتشد جيش مغولي ضخم في ربيع سنة ١٢٣٦ م شمالي بحر «آدال» بقيادة «باطو بن جاجي» الذي شملت أملاكه تلك السهوب. وصحب «باطو» اخوته وأربعة من أبناء أعمامه هم «كيوك» و«قاذن» ولدا الخان الأكبر «اوكيتاي» و«بايدار بن جغتاي» و«مونك بن تولوي»، أما القائد الشيخ «سبوتاي» فكان رئيسًا لأركان حرب الجيش.

ولما فرغ الجيش المغولي من قمع القبائل التركية النازلة على نهر الفولغا، زحف إلى البلاد الروسية في خريف سنة ١٢٣٧ م فاستولى عنوة على «ريضان» في ٢١ كانون الأول - ديسمبر - ودارت مذبحة هلك فيها أميرها وجميع سكان المدينة. ثم سقطت «كولومونا» بعد بضعة أيام. وفي أوائل السنة الجديدة ١٢٣٨ م هاجم المغول مدينة «فلاديمير» الكبيرة فلم تصمد للقتال أكثر من ستة أيام، واقترن سقوطها في ٨ شباط - فبراير - بمذبحة جماعية جديدة. وتعرضت «سوذدال» للنهب في الفترة ذاتها. وتبع ذلك الاستيلاء على المدن الأخرى في روسيا الوسطى وتدميرها وأهمها «موسكو» و«يورييف» و«جاليش» و«بريسلاف» و«روستوف» و«ياروسلاف».

وحدث في ٤ آذار ـ مارس ـ سنة ١٢٣٨ م أن حلت الهزيمة بالأمير الكبير « يوري » سيد فلاديمير، ولقي مصرعه على ضفاف نهر « سيتي ». ولم تلبث « تغير » و« تورزوك » أن سقطتا في أيدي المغول بعد المعركة. وتقدم الغزاة فاجتازوا تلال « فالداي » قاصدين « نوفجورود ». ولكن أمطار الربيع حولت النطاق المحيط بالمدينة إلى مستنقعات تعيق عمل الفرسان. فانسحب « باطو »، وأمضى ما تبقى من السنة في سحق آخر ما صادفه من المقاومة من قبل القبجاق، بينما قهر ابن عمه « مونك » اللان والقبائل النازلة بشمال القوقاز، ثم قام بغارة استطلاعية حتى وصل « كييف ».

عاد « باطو » ليقود جيش المغول الرئيسي إلى « أوكرانيا » في خريف سنة ١٢٤٠ م ـ ٦٣٨ هـ. فنهب « شرنيجوف » و« بريسلافل » واستولى عنوة على « كييف » في ٦ كانون الأول ـ ديسمبر ـ سنة ١٢٤٠ م بعد أن استبسلت في الدفاع. وقام المغول بتدمير قسم كبير من كنوزها العظيمة، ولقي أكثر سكانها مصرعهم. على أنه جرى الابقاء على حياة « ديمتري » قائد الحامية لشجاعته التي استحوذت على إعجاب « باطو ». ثم تحركت قوة من الجيش المغولي بقيادة « بايدر بن جغتاي » ومضت نحو الشمال (إلى بولندا) فنهب « ساندومير » و« كراكوف ». فاستنجد الملك البولندي بالفرسان التيوتون (الألمان) النازلين على ساحل بحر البلطيق. غير أن جيوشهم المتحدة بقيادة « هنري » دوق « سيليزيا » تعرضت في ٩ نيسان ـ إبريل ـ لهزيمة ساحقة بعد معركة عنيفة دارت رحاها في « فاهلشتات » قرب « لبيجنتز ». غير أن « بايدر » لم يجرؤ على المضي نحو الغرب إلى أبعد من ذلك، فاجتاح « سيليزيا » ودمرها ثم توجه نحو الجنوب ـ إلى بلاد المجر ـ بعد أن اجتاز « مورافيا ».

وفي تلك الأثناء مضى « باطو » و« سبوتاي » إلى « غاليسيا » بعد أن ساقا أمامهما جموعًا من الأسرى الذين استبد بهم الخوف وانتموا إلى كل الأقوام.

ثم اجتازا جبال «الكربات» إلى سهل المجر. وقاد «بيلا» ملك المجر جيشه للقائهما، غير أنه حلت به هزيمة ساحقة في ١١ نيسان - إبريل - عند جسر «موهي» على نهر «سايو». فتدفق المغول على بلاد المجر، ونفذوا إلى «كرواتيا»، وواصلوا زحفهم حتى بلغوا سواحل البحر الأدرياتي. وأقام «باطو» بضعة شهور في بلاد المجر، ثم جاءه الرسل يحملون إليه النبأ بأن الخان الكبير «اوكيتاي» مات في «قراقورم» في ١١ كانون الأول - ديسمبر - سنة ١٢٤١ م. ولم يعد باستطاعة «باطو» متابعة أعماله قبل أن يستقر الحكم من جديد في بلاد المغول.

لقد عمل المغول على تدمير قسم كبير من أوروبا، وكان من المفروض مجابهة هذا الخطر باجراء مشترك. غير أن أمراء أوروبا وملوكها، اعتبروا هذا الاجتياح بمثابة ظاهرة مؤقتة ليس لها تأثيرها على الاتجاه العام. فقد تزوج القسم الأكبر من قادة المغول، من فتيات مسيحيات، أصبح لهن ثقلهن في بلاط الخان الكبير وفي الأوساط القيادية. كما أن الكنائس التي كانت تتابع تحركات المغول لا زالت تأمل في استخدام القوة الجديدة والتحالف معها ضد المسلمين. وكان يتم تغليف هذه الآمال بالأساطير، مثل أسطورة «بريستر يوحنا»، التي قضت على أن الخلاص سوف يجيء من الشرق، والتي تمسك بها عدد كبير من رجال الدين المسيحي والقادة والأمراء في الغرب. وتحقيقاً لهذه الرؤيا كان لا بد للكنيسة من إثارة العواطف للقيام بالدعوة لحملة صليبية جديدة.

٣ ـ هولاكو يقود الحرب:

أصبح «كيوك بن اوكيتاي» هو الخان الأكبر للمغول في الفترة بين سنة ١٢٤١ م و١٢٤٨ م ومضت فترة من الاضطراب إلى أن انعقد المجلس الوطني «القوريلتاي» فانتخب في الأول من تموز ـ يوليو ـ سنة ١٢٥١ م «منكو» خانًا كبيرًا، وأصبح باستطاعة اخوة «منكو» وهم «قبيلاي» و«هولاكو» و«أريق بوقا» تحقيق ما تم التفكير به طويلًا وهو القضاء على المسلمين. وكان «هولاكو» هو قائد القوات في فارس فأخذ على عاتقه قيادة الحرب. وقد عرف عنه حبه للشر وتجرده من كل نزعة إنسانية. كما كان يعاني من نوبات الصرع، وحدة المزاج، وكان لزوجته «طقز خاتون» أقوى نفوذ في البلاط، وهي من أميرات قبيلة «الكرايت» حفيدة لـ «طغرل خان»، فتعتبر ابنة عم والدة «هولاكو». وكانت شديدة التعلق بالنسطورية، فلم تخف كراهيتها للإسلام وحرصها على مساعدة المسيحيين على اختلاف مذاهبهم.

كان أول هدف لـ «هولاكو» هو تدمير الإسماعيلية (الحشاشين) والاستيلاء على مقرهم في قلعة «آلموت»، إذ كان من المحال ـ بحسب ما كان يراه «هولاكو» ـ إقامة حكومة منظمة ما لم يتم القضاء على الإسماعيليين لا سيما بعد أن عمل هؤلاء طويلًا على إلحاق الأذى بالمغول عندما اغتالوا «جغتاي» ثاني أبناء «جنكيز خان». وكانت حاضرة الخلافة العباسية (بغداد) هي الهدف الثاني لـ «هولاكو»، إذ يصبح بامكان الجيش المغولي بعدها التوغل في الشام.

وأمضى «هولاكو» فترة خمسة أعوام تقريبًا في الإعداد لهذه الحملة الضخمة، فأعد كل شيء بدقة وعناية، وعمل على إصلاح الطرق التي تجتاز «تركستان» و«فارس»، وتمت إقامة الجسور على الأنهار. وجهزت العربات

اللازمة لجلب أدوات الحصار من الصين. وتولى القائد «كتبغا النسطوري» أقرب القادة إلى «هولاكو» وأعظمهم موطنًا لثقته قيادة الجيش المكلف بتمهيد الطريق للغزو. وكان «كتبغا» ينتمي إلى عنصر «النايمان» والذي شاع أنه ينحدر من حكماء الشرق.

ومضى «كتبغا» لتنفيذ مهمته التي استغرقت ثلاث سنوات، فأعاد سلطة المغول على المدن الكبيرة بالهضبة الإيرانية (الفارسية) واستولى على بعض معاقل الإسماعيلية التي تتحكم بمحاور الطرق. وعندما انتهت الاستعدادات اصطحب هولاكو «طقز خاتون» وزوجتين أُخريين وولديه الكبيرين. وكان يمثل «بيت جغتاي» حفيده «نيقودار» وأرسل «باطو» من القبيلة الذهبية ثلاثة من أبناء أخيه الذين ارتحلوا على امتداد الساحل الغربي لبحر قزوين ولحقوا بالجيش المغولي في فارس. وقدمت كل قبيلة من قبائل الحلف خُمس رجالها المقاتلين، واشترك في الحملة نحو ألف من الرماة الصينيين الذين برعوا في قذف السهام التي تحمل اللهب والنار.

وعندما بدأ هذا الجيش تحركه في كانون الثاني ـ يناير ـ سنة ١٢٥٦ م واجتاز نهر جيحون، ظهر أن المروج والسهول قد أصبحت خالية من قطعان الماشية وذلك من أجل توفير الأعشاب الضرورية لخيول المغول.

كان زعيم الإسماعيليين «ركن الدين خورشاه» يعرف ما يتهدده به المغول. فحاول أن يدرأ الخطر باللجوء إلى الطرائق الدبلوماسية التي أتقن قادة الإسماعيليين استخدامها. ولكن جهوده لصرف المغول عن أهدافهم لم تحقق أي نجاح.

وتحرك «هولاكو» بقوة ـ ولكن بصورة بطيئة ـ فاجتاز «ديموند» و«عباس آباد» وانحدر إلى وديان الإسماعيلية (الحشاشين). ولما ظهر الجيش الضخم أمام «قلعة آلموت» وأخذ في تضييق الحصار على القلعة، لم يسع «ركن الدين» إلا التسليم، فقدم بنفسه في كانون الأول ـ ديسمبر ـ إلى

خيمة «هولاكو»، وأعلن خضوعه وإذعانه. غير أن حاكم القلعة رفض إطاعة ما أصدره إليه من أوامر بتسليم القلعة فسقطت عنوة بعد بضعة أيام. وتلقى «ركن الدين» وعدًا من «هولاكو» بالابقاء على حياته، غير أنه طلب إليه التوجه إلى «قراقورم»، لعله يحصل من الخان الكبير «منكو» على شروط تفضل تلك التي بذلها «هولاكو». غير أنه لما وصل إلى «قراقورم»، رفض «منكو» أن يلقاه، وقال: «إنه من الخطأ إرهاق خيولنا الجيدة في هذه السفارة التافهة، على أن اثنين من حصون الإسماعيلية وهما «جردوه» و«لمبوذر» امتنعا على المغول. فجرى إخطار «ركن الدين» بالعودة إلى بلاده ليحملها على التسليم، غير أنه لقي مصرعه مع أصحابه أثناء مسيره. وصدرت الأوامر في الوقت ذاته إلى «هولاكو» باستئصال شأفة الإسماعيلية (الحشيشية) وتقرر إرسال عدد من أقارب زعيم الإسماعيلية إلى ابنة «جغتاي» (سالقان خاتون) حتى تنتقم منهم لمصرع أبيها. بينما تم استدعاء آخرين بحجة إحصاء عددهم، ودارت فيهم مذبحة هلك فيها الألوف منهم. ولم تنته سنة ١٢٥٧ م - ٦٥٥ هـ حتى لم يبق إلا عدد قليل من اللاجئين في جبال فارس. أما الإسماعيلية في الشام فإنهم لم يكونوا في متناول «منكو» ومع ذلك ترقبوا ما ينتظرهم من مصير.

وكان الإسماعيلية يحتفظون في «آلموت» بمكتبة ضخمة زخرت بكتب في علوم الفلسفة والتنجيم. فأرسل «هولاكو» حاجبه المسلم «عطا الملك الجويني» ليفحصها. فأخرج منها ما صادفه من المصاحف وسائر الكتب ذات القيمة التاريخية والعلمية، وأمر بحرق جميع كتب الملحدين».

* * *

هذا شيء عن المغول وفظائعهم... فماذا هناك في جبهة الصليبيين؟!

هزيمة ساحقة...

للملك لويس التاسع...

في معركة المنصورة...؟!

الجيوش الفرنسية في مصر[1]:

يقال أن ملك فرنسا «لويس» التاسع (١٢١٤ - ١٢٧٠ م) والمعروف باسم لويس القديس أصيب بمرض أشرف فيه على الهلاك بالحمى (في تشرين الأول - اكتوبر - ١٢٤٤ م)، وهو إذ شعر بدنو أجله نذر على نفسه أن يتوجه إلى فلسطين لقيادة حملة صليبية إن هو نجا من الموت. وعندما غادر مرحلة الخطر، واستعاد عافيته، أخذ في الإعداد لقيادة حملة صليبية جديدة.

مهما كان عليه الموقف، فقد كانت قيادة الحملات الصليبية في تلك الفترة هي هدف القادة والملوك والمغامرين والطامعين في جميع أنحاء أوروبا. وعلى هذا فقد بدأ «لويس» القديس بالإعداد لحملته التي استمر تنظيمها وتجهيزها فترة ثلاث سنوات. وعندما انتهت الاستعدادات، غادر «لويس» باريس في ١٢ آب - أغسطس - سنة ١٢٤٨ م، وأبحر من «إيج مورتز» في ٢٥ آب - أغسطس - يرافقه عدد كبير من أمرائه وقادته، وقوات من كل أنحاء أوروبا. ووصل الأسطول الملكي إلى «ليماسول» في قبرص يوم ١٧ أيلول - سبتمبر - سنة ١٢٤٨ م. وهناك توقفت القوات لإعادة التنظيم والاستعداد للحرب ووضع مخططات الهجوم حتى ١٣ أيار - مايو - ١٢٤٩ م حيث أمكن حشد أسطول ضخم في «ليماسول» يضم ١٢٠ سفينة ضخمة بالإضافة إلى عدد كبير

(١) مختصرًا من كتاب «المظفَّر قُطُز»

من السفن الصغرى. وفي ٣٠ أيار ـ مايو ـ ١٢٤٩ م أبحر الأسطول من قبرص ليصل إلى سواحل مصر في ٤ حزيران ـ يونيو ـ ١٢٤٩ م ـ ٦٤٧ هـ.

كان السلطان «الصالح أيوب» قد أمضى الشتاء في الشام، وهو يتابع استعدادات الإفرنج، وينتظر هجومهم الذي كان من المتوقع حدوثه في الشام. وعندما توافرت المعلومات عن توجه الصليبيين إلى مصر، رفع «الصالح أيوب» الحصار عن حمص، التي كان أمير حلب «الناصر يوسف» قد انتزعها من ابن عمه «الأشرف موسى» وأراد «الصالح أيوب» إعادتها لأميرها «الأشرف موسى»، ولكن نزول الفرنج في مصر اضطره إلى رفع الحصار عن حمص، وعجل بالعودة إلى مصر، بعد أن أمر جيوشه بالشام أن تتبعه إليها. ولما كان السلطان «الصالح أيوب» قد وصل إلى مرحلة متقدمة من العمر، وكان مرض (السل) قد أرهقه حتى لم يعد باستطاعته ممارسة القيادة المباشرة، فقد أمر وزيره المتقدم في العمر «فخر الدين» أن يتولى قيادة الجيش، وعهد إليه بمنع الفرنج من النزول إلى البر، وأرسل إلى دمياط كميات ضخمة من الذخائر وشحنها برجال قبيلة «كنانة» وهم من البدو المشهورين بالشجاعة، واتخذ مقره في «أشمون طناح» التي تقع إلى الشرق من الفرع الرئيسي لنهر النيل.

كانت قوات الصليبيين متفوقة باعدادها، حيث كانت تضم وفقاً لما تذكره بعض المصادر نحواً من تسعة وخمسين ألف رجل. واعتمد «لويس» على تفوقه، وأراد استثمار عامل المباغتة، فبدأ إنزال قواته على الفور. وبدأت معركة ضارية تكبد فيها المسلمون خسائر فادحة اضطرتهم في نهاية النهار إلى الإنسحاب، والتوجه إلى دمياط التي هيمن عليها الذعر ـ بعد تجربة الحملة الصليبية السابقة ـ ولما لم تتمكن حاميتها من السيطرة على الموقف وإعاقة انسحاب السكان من المدينة، أصدر «فخر الدين» أوامره بالجلاء عن

دمياط. وأحرقت المدينة وما تضمه من مستودعات حتى لا تقع في قبضة الأعداء. وفي صبيحة اليوم التالي (يوم ٦ حزيران ـ يونيو ـ) علم الصليبيون من المسيحيين الذين لزموا دورهم أن دمياط تجردت من كل أسباب الدفاع فاجتازوا الجسر في موكب الانتصار إلى المدينة. وتوقفت قوات الصليبيين انتظارًا لانتهاء موسم الفيضان الذي كان قد بدأ ـ من جهة ـ وانتظارًا لقدوم الإمدادات من فرنسا بقيادة أخي الملك الفونسو كونت « بواتو »، وتم توزيع أحياء المدينة على القوى المختلفة المشتركة في الحملة.

أصيب العالم الإسلامي بالذعر نتيجة ضياع دمياط وسقوطها في قبضة الصليبيين. وأسرع السلطان المريض إلى تقديم العرض الذي قدمه أبوه « الكامل » قبل ثلاثين سنة وهو التنازل عن بيت المقدس مقابل الانسحاب من دمياط. ولكن هذا العرض لم يلق من الملك « لويس » إلا الرفض. وفي تلك الأثناء كان السلطان « أيوب » قد أنزل العقاب بالقادة المسؤولين عن ضياع المدينة (دمياط) فأمر بإعدام أمراء بني كنانة، وبعزل « فخر الدين » وكبار قادة المماليك. وأراد المماليك أن يقوموا بثورة داخل القصر، غير أن « فخر الدين » أعاقهم عن تحقيق هدفهم، وكان ذلك سببًا في استعادة مكانته لدى « السلطان أيوب ».

وأخذت القوات في التدفق إلى المنصورة، والتي كان السلطان « الكامل » قد شيدها في الموضع الذي أحرز فيه انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة. وأمر السلطان « أيوب » بحمله في محفته إلى المنصورة حتى يشرف بنفسه على تنظيم الجيش، وتحصين الدفاع. وانطلق البدو المشهورون في حرب العصابات يجوبون الريف، وظلوا يزحفون حتى بلغوا أسوار دمياط، يقتلون كل فرنجي يلتقون به خارج أسوار المدينة. وتحتم على الملك « لويس » أن يقيم الحواجز، وأن يحفر الخنادق لحماية معسكره.

وصلت قوات الدعم الفرنسية بقيادة الفونسو كونت « بواتو » (في ٢٤

تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٢٤٩ م) وفي الوقت ذاته كانت مياه النيل قد هبطت وأصبح بالإمكان استئناف التقدم في اتجاه القاهرة. وفي ٢٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٢٤٩ م خرج الجيش الصليبي من دمياط، وسلك الطريق المتجه جنوبًا نحو المنصورة. وبقيت بدمياط حامية قوية فضلًا عن الملك وبطريرك بيت المقدس. ولم تمض ثلاثة أيام على بداية الهجوم حتى توفي الملك السلطان «الصالح أيوب» في المنصورة (يوم ٢٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٢٤٩ م ـ ٦٤٧ هـ). وهددت وفاته المسلمين بكارثة خطيرة. إذ أن ابنه الوحيد «توران شاه» كان يقيم بعيدًا في إقليم الجزيرة حيث ينوب عن أبيه في الحكم. ولم ينقذ مصر إلا السلطانة «شجرة الدر» التي منحت ثقتها إلى «جمال الدين محسن» الذي خضع البلاط لسلطانه، بقدر ما منحت ثقتها أيضًا إلى «فخر الدين». وأخفت خبر وفاة زوجها وزورت وثيقة تحمل توقيعه، وتقضي بتعيين «توران شاه» وليًا للعهد، وتعيين «فخر الدين» قائدًا عامًا للجيش ونائبًا للسلطان أثناء مرضه.

عمل «فخر الدين» على الاحتفاظ بالقسم الأكبر من قواته خلف البحر الصغير الذي يتفرع عن المجرى الرئيسي لنهر النيل جنوبي المنصورة ويسير مجتازًا «أشمون طناح» إلى بحيرة «المنزلة»، فيعزل بذلك ما يعرّف بجزيرة دمياط. وفي الوقت ذاته وجه «فخر الدين» مفارز من قواته للدفاع عن القنوات الكثيرة المتفرعة عن النيل، وقد نجح هؤلاء الفرسان في إيقاع الاضطراب بقوات الإفرنج عند اجتيازها لكل قناة من القنوات. وهكذا تقدم الملك «لويس» ببطء وحذر حتى اقترب من «فارسكور» حيث دارت معركة حاسمة في ٧ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٢٤٩ م، انتصر فيها الفرنج، ثم بلغ الملك في ١٤ كانون الأول ـ ديسمبر ـ إلى «البرمون». وفي ٢١ كانون الأول عسكر الصليبيون على ضفاف البحر الصغير تجاه المنصورة. وظل الجيشان ستة أسابيع يواجه أحدهما الآخر. وحدثت خلال هذه الفترة

مجموعة من الاشتباكات الثانوية، كما حاول فرسان المسلمين توجيه ضربات إلى مؤخرة قوات الصليبيين الذين أحبطوا هذه الضربات.

وفي تلك الأثناء أمر الملك « لويس » بإقامة جسر على البحر الصغير، غير أنه على الرغم من تشييد أروقة مسقوفة لحماية العمال والصناع، فإن ما لجأ إليه المصريون من إلقاء القذائف - من الشاطئ المقابل - ولا سيما النيران الإغريقية، بلغ من الشدة والعنف ما دعا الفرنج إلى التخلي عن العمل. وتوقف الصليبيون حتى ٨ شباط - فبراير - ١٢٥٠ م حيث استخدموا الجواسيس لعبور البحر الصغير. وعلى الرغم من الأوامر الصارمة التي أصدرها الملك إلى أخيه الكونت « روبرت » الذي كان يقود المقدمة بعدم التوغل بعد العبور، إلا أن الكونت « روبرت » خالف الأوامر واندفع بفرسانه إلى قلب معسكر المسلمين الذين أخذتهم المباغتة فلم يتمكنوا من الوصول إلى أسلحتهم. ولقي كثير من قوات المسلمين مصرعهم وعلى رأسهم القائد « فخر الدين » ذاته، فتولى « ركن الدين بيبرس البندقداري » القيادة، وأعاد تنظيم القوات بسرعة، ووضع الكمائن عند تقاطع الشوارع، ثم أمر بفتح أبواب المدينة. واندفع الصليبيون حتى إذا بلغوا أسوار القلعة انقض عليهم المماليك من الشوارع الجانبية. ولما لم تتمكن خيول الفرنج من الاستدارة في الشوارع الضيقة، فقد وقعت على الفور في فوضى واضطراب. فلم يفلت إلا عدد قليل من الفرسان بلغوا ضفاف النيل راجلين ولم يلبثوا أن غرقوا في مياهه. واعتصم قائد المقدمة « روبرت » وحرسه في أحد البيوت، لكن الجند المصريين اقتحموا عليه مخبأه وقتلوه مع حراسه. واستطاع بعضهم الفرار والوصول إلى الملك الذي كان قد أكمل عملية العبور ليخبروه بما حدث في مدينة المنصورة. فأسرع الملك لتنظيم الدفاع، ومجابهة قوات المماليك التي انطلقت من المنصورة بعد القضاء على قوات الإفرنج فيها. واستمر الاشتباك على شاطئ النهر حتى المساء دون أي نتيجة، وبذلك تكون قوات الصليبيين قد نجحت في عملية

العبور، ولكنهم لم يتمكنوا من مغادرته. وقام المسلمون بهجوم جديد في يوم ١١ شباط - فبراير - ولكن الصليبيين نجحوا في إحباطه بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة. وكان الملك «لويس» يتوقع قيام المصريين بثورة على قيادتهم، إلا أن ذلك لم يحدث، بل إن ما حدث قد جاء ليزيد من قدرتهم. فقد وصل «توران شاه» إلى مصر بعد أن بايعه أهل دمشق على خلافتهم.

وفي ٢٨ شباط -فبراير - ١٢٥٠ م وبعد أن تولى «توران شاه» إدارة السلطة، أمر بإنشاء أسطول من السفن الخفيفة، ثم نقلها على ظهور الإبل إلى فروع النيل السفلى بمهمة اعتراض السفن الصليبية. واستولى المصريون على ثمانين سفينة للفرنج الواحدة بعد الأخرى. وحدث في ١٦ آذار - مارس - أن فقد الصليبيون قافلة مؤلفة من اثنين وثلاثين سفينة بعد أن تعرضت لهجوم واحد من قبل الأسطول المصري. ولم يلبث أن تعرض الفرنج لخطر المجاعة، وأعقب المجاعة اندلاع المرض بين الصليبيين.

أدرك الملك «لويس التاسع» في بداية شهر نيسان - إبريل - سنة ١٢٥٠ م - ٦٤٨ هـ أنه لا بد أن يبذل كل ما في وسعه لكي يخلص الجيش من المأزق الذي يجابهه وأن يتقهقر إلى دمياط. وأعد نفسه آخر الأمر لأن يدخل في مفاوضات مع المسلمين، فأرسل إلى «توران شاه» يعرض عليه أن يستبدل بدمياط بيت المقدس. غير أن الوقت قد فات، إذ علم المصريون كيف أضحى مركز «لويس» بالغ الحرج، فلما لم يلق عرض «لويس» سوى الرفض، دعا قادته للاجتماع به لمناقشة أمر التراجع حتى دمياط. ونظمت خطة الإنسحاب فتقرر نقل المرضى على السفن بطريق النيل، وأن يتخذ الأصحاء من الجند الطريق الذي سبق أن سلكوه في قدومهم.

وفي صبيحة يوم ٥ نيسان - إبريل - سنة ١٢٥٠ م. بدأت الرحلة الشاقة، فاتخذ الملك «لويس» مكانه في المؤخرة حتى يشجع الجنود الذين شردوا عن الطريق. وإذ شهد المماليك بالمنصورة تحرك الفرنج، نهضوا

لمطاردتهم، فاكتشفوا أن الفرنج جميعًا قد اجتازوا البحر الصغير، غير أن المهندسين أهملوا تدمير الجسر، فهرعوا إلى اجتياز البحر الصغير على هذا الجسر. ولم يلبثوا أن أحاطوا بالفرنج من كل جانب. ومضى اليوم الأول من المطاردة وإحكام الطوق على الفرنج، وفي اليوم الثاني سقط الملك مريضًا بحيث لم يتمكن من ركوب حصانه، فتم نقله إلى كوخ صغير بقرية «ميت الخولي عبد الله» الواقعة إلى الشمال من «شرمساح».

وحاول قادة الصليبيين الاتصال بالسلطان «توران شاه»، وبينما كانت المفاوضات مستمرة للجلاء عن دمياط دون قيد أو شرط ارتفع صوت في المعسكر الصليبي يعلن قبول الملك بالاستسلام دون قيد أو شرط. - بدون علم الملك ومن قبل أحد جواسيس المسلمين على ما تزعمه المصادر الغربية - فتم تطويق الجيش بأسره مع قيادته، وفي الوقت ذاته تم تطويق وأسر السفن التي كانت تحمل المرضى إلى دمياط. ونقل الملك إلى منزل بالمنصورة، كما ألقي بكبار القادة والبارونات في السجون. وفرضت على الملك غرامة قدرها خمسمائة ألف ليرة تورناوية - أي ما يقابل مليون بيزنته - مقابل إطلاق سراحه. كما فرضت على كل أمير فدية بحسب قدره ومكانته. وقضى الاتفاق بأن يتم تسليم دمياط للمسلمين بعد يومين (أي في ٣٠ نيسان - إبريل - سنة ١٢٥٠ م) وبقي الأسرى مع «توران شاه» في «فارسكور» حتى يوم ٢ أيار - مايو - سنة ١٢٥٠ م».

* * *

ثم ماذا؟!

مصرع . . .

مائة ألف . . .

من الفرنج . . .؟!

في السنة الثامنة والأربعين بعد الستمائة[1] . . .

« وفي أول ليلة من سنة ثمان وأربعين وستمائة . . . كان المصاف بين الفرنج والمسلمين على المنصورة . . .

« بعد وصول الملك المعظم توران شاه الى المخيم . . .

ومسك الأفرنسيس . . . وهوريد افرنس[2] . . .

« وقتل من الفرنج مائة ألف!!! »

« ووصل كتاب المعظم توران شاه . . . يعني الى دمشق . . . الى نائبها جمال الدين بن يغمور » . . .

الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . . .

نبشر المجلس السامي الجمالي . . .

بل نبشر الإسلام كافة . . . بما منّ الله به على المسلمين . . . من الظفر بعدوّ الدين . . .

ولما كان يوم الأربعاء مستهل السنة المباركة . . . تمم الله على الإسلام بركتها . . .

---

(١) مختصرا من « عقد الجمان . . . في تاريخ أهل الزمان » للعيني . . . عصر سلاطين المماليك . . .

(٢) المقصود Roi de France . . . اي ملك فرنسا.

فتحنا الخزائن... وبذلنا الأموال... وفرقنا السلاح... وجمعنا العربان... والمطوعة...

واجتمع خلق عظيم... لا يحصيهم إلا الله تعالى...

ولما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع عليه الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل رحمه الله...

فأبينا...

ولما كان في الليل... تركوا خيامهم... وأثقالهم... وأموالهم...

وقصدوا دمياط هاربين...

فسرنا في آثارهم طالبين...

ومازال السيف يعمل في أدبارهم عامّة الليل... وقد حلّ بهم الخزي والويل...

فلما أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا...

غير من ألقى نفسه في اللجج...

وأما الأسرى فحدّث عن البحر ولا حرج...

والتجأ الفرنسيس الى المنية[1]...

وطلب الأمان فآمناه. وأخذناه... وأكرمناه...

وتسلمنا دمياط بعون الله ولطفه...!!»

---

(١) هي منية أبي عبد الله... وتعرف حاليا باسم «ميت الخولي عبد الله» وهي على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط... وتتبع مركز فارسكور بمحافظة دمياط.

قَتْل . . .

الملك المعظَّم . . .

توران شاه . . .؟!

الكلام فيه على انواع:

ترجمته؟!

« هو السلطان الملك المعظم... تورانشاه... بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب...

كان أبوه ولاه حصن كيفا في الشرق...

ثم كان يستدعيه فلا يجيبه... فلذلك كان يكرهه...

ولأجل خفة فيه أيضا وخلاعة وهوج...

فلذلك لم يوص اليه بالمُلك...

سبب قتله؟!

« كان قتله لأمور بدت منه... فنفرت عنه القلوب... فاتفقوا على قتله...

منها: أنه كان فيه خفة.

ومنها: انه احتجب عن الناس أكثر من أبيه... وما ألفوا من أبيه ذلك...

ومنها: انه كان اذا سكر يجمع الشموع ويضرب رءوسها بالسيف

فيقطعها ويقول: كذا أفعل بالبحرية!!!

ومنها: أنه كان يسمي مماليك أبيه بأسمائهم...

ومنها: أنه قدّم الأرذال والأنذال... وأبعد الأماثل والأكابر...

ومنها: أنه أهان مماليك أبيه الكبار...

ومنها: انه كان قد وعد أقطاي بأن يؤمره... ولم يف له... فاستوحش منه...

ومنها: أنه كان يهدّد أم خليل[1]... ويطلب المال والجواهر... فخافت منه... واتفقت معهم...

في كيفية قتله؟!

«اجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور...

وهجموا عليه بالسيوف...

وكان أول من ضربه... ركن الدين بيبرس... الذي صار ملك مصر فيما بعده...

فهرب المعظم منهم إلى البرج الخشب الذي نصب له بفارسكور...

فأطلقوا في البرج النار...

فخرج المعظم من البرج هاربا طالبا للبحر ليركب في حراقته...

فحالوا بينه وبينها بالنشاب...

فطرح نفسه في البحر فأدركوه...

وأتموا قتله في يوم الاثنين...

---

(١) هي شجرة الدر...

وكانت مدة إقامته في الملك من حين وصوله إلى الديار المصرية شهرين وأياما . . .!!!

فانظر الى هاتين الوقعتين العظيمتين القريبتين... كيف اتفقتا في شهر واحد . . .

إحداهما في أوله: وهي كسرة الفرنج الكسرة العظمى التي استأصلتهم . . .

والثانية في آخره: قتل للسلطان المعظم على هذا الوجه الشنيع» . . .؟!!

سلطنة...

شجرة الدُّرّ...

حظية الملك الصالح أيوب...؟!

ولمّا قتلوا المعظَّم...

«اجتمعت الأمراء واتفقوا على أن يقيموا شجرة الدرّ... في المملكة!!!

وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي... المعروف بالتركماني... أتابك للعساكر...

وحلفوا على ذلك...

وخطب لشجرة الدُّر على المنابر!!!

وضربت السكة باسمها!!!

وكان نقش السكة:

المستعصمية... الصالحية...

ملكة المسلمين...

والدة الملك المنصور خليل...

وكانت شجرة الدرّ قد ولدته من الصالح أيوب ومات صغيرا!!!

وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع: والدة خليل المستعصمة!!!...

لويس التاسع ... يُطلَق سراحه؟!!

« ولما تم النصر الأعظم والفتح الأكبر بتسلم دمياط من الفرنج من ريد افرنس...

افرج عنه من الحبس...

فتقرر الاتفاق على تسليم دمياط وأن يذهب هو بنفسه سالما...

فأرسل ريد افرنس[1] الى مَن بدمياط يأمرهم بتسليم البلد الى المسلمين!!!

فأجابوه الى ذلك...

ودخل العَلَم السلطاني اليها... يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر...

وأفرج عن ريد افرنس...

وانتقل هو ومن بقي من أصحابه الى البر الغربي...

وركب البحر هو ومن معه...

وأقلعوا إلى عكا...

ووردت البشرى بذلك الى البلاد... وضربت البشائر... وأعلنت الأفراح!!!

خمسون ألفًا؟!

« وفي كسرة ريد افرنس يقول القاضي جمال الدين بن مطروح رحمه الله:

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال حق صادر عن نصيح

آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع المسيح

(١) أي: Roi de France.

أتيت مصرا تبتغي ملكها   تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم   ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أوردتهم   بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يرى منهم   إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك اللَّه لأمثالها   لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم[1] بذا راضيا   فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عودة   لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها   والقيد باق والطواشي صبيح.

(١) المقصود البابا في روما.

سلطنة . . .

أيبك التركماني . . . ؟!

ولمّا جرى ما ذكرنا من عصيان الملك المغيث بالكرك واستيلائه عليها وعلى الشوبك...

« واستيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق...

ووقوع الاضطراب في مصر...

اجتمعت البحرية والأتراك... وأجالوا الرأي بينهم...

وقالوا: إنه لا يمكننا حفظ البلاد وأمر الملك الى امرأة... وقد ورد في الحديث: « كيف يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »...

وقالوا: لا بد من إقامة شخص كبير تجتمع الكلمة عليه... ويشار في الملك إليه...

فاتفق رأيهم على أن يفوض أمر الملك إلى الأمير عز الدين أيبك الجاشنكير التركماني الصالحيّ... مقدّم العساكر...

المَلِك المعزّ؟!

« فقاموا إليه... وسألوه أن يُولَّى عليهم... ليقوم بسياسة المُلك...

فأجابهم على ذلك...

وولوه... وعقدوا له...

ولقبوه بالملك المُعزّ...

وهو أول ملوك الترك...

وأبطلت السكة والخطبة التي كانت باسم شجرة الدر في ثاني يوم تمليكه...

وكانت مدة سلطنتها ثلاثة أشهر... لأنهم كانوا عقدوا لها بالسلطنة في آخر المحرم... ثم خلعوها من السلطنة في آخر ربيع الآخر!!!»

سلطنة الملك الأشرف . . .

وكان عمره . . .

عشر سنين . . . ؟!!

وكان السبب في ذلك أنهم لما رأوا وقوع الاختلاف في البلاد...

«واستيلاء كل أحد على ناحية...

ووقوع الاضطراب في الديار المصرية...

قالوا: لا بدَّ من إقامة شخص من بني أيوب... يجتمع الكل على طاعته... ويرتفع الخلاف...

واتفق رأيهم على إقامة الملك الأشرف مظفر الدين موسى...

وأن يكون الملك المعزّ عز الدين أيبك أتابكة... والقائم بتدبير الدولة... والتقدمة على العساكر...

فرضي الجميع بذلك...

وأقاموا الأشرف المذكور...

وأجلسوه في دست السلطنة... والأمراء في خدمته... يوم الخميس لخمس مضين من جمادي الأولى...

وكان عمر الأشرف عشر سنين...

وجلس على السماط على عادة السلطنة...

وكانت مدة سلطنة عز الدين أيبك خمسة أيام... لأنه تولى السلطنة في آخر ربيع الآخر يوم السبت... وخلع عنها يوم الخميس الخامس من جمادي الأولى...!!!»

خلع الأشرف عن السلطنة ...
وإعادتها إلى ...
أيبك التركماني ...؟!

في السنة التاسعة والأربعين بعد الستمائة...

« استهلت هذه السنة، والخليفة هو المستعصم بالله...

وصاحب الديار المصرية: الملك الأشرف موسى... بن الملك المسعود... ابن الكامل... بن الملك العادل... بن أيوب...

ومدبر المملكة... وأتابك العساكر... عز الدين أيبك التركماني...

خلع الأشرف؟!

« وفي هذه السنة... عزم المُعزّ أيبك على تزويجه بشجرة الدرّ... والاستقلال بالسلطنة...

وابطال أمر الملك الأشرف مظفر الدين موسى... فأبطله... وخلعه... وأزاله... ونزعه...

وكان ذلك انتهاء الدولة الأيوبية بالديار المصرية...

وابتداء الدولة التركية...

وظهور مُلك البحرية...

ومدة الدولة الأيوبية الى هذا الحين خمس وثمانون سنة...
وكانت مدة الملك الأشرف المذكور حَول الحول...»

الملك المعز... يتزوج شجرة الدرّ؟!

«وفيها... تزوج السلطان الملك المعزّ بأمّ خليل شجرة الدرّ... حظيّة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب... واستقل بالسلطنة...!!!»

المماليك...
أولو نجدة...
وبأس...؟!

في السنة الخمسين بعد الستمائة . . .

« استهلت هذه السنة ، والخليفة : المستعصم بالله . . .

وسلطان الديار المصرية: الملك عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي التركماني . . .

لماذا انتقل المُلْك الى المماليك ؟ !

« اعلم أن الديار المصرية والشامية انتهت بعد انقضاء الدولة العبيدية الفاطمية الى الدولة الأيوبية . . .

ثم لما شاء الله تعالى انقراض الدولة الأيوبية وذريتها . . . سبق في علمه الأزلي أن صلاح هذه المملكة . . .

بتولية أولي النجدة والبأس . . .

وأن الترك من بينهم هم أصلح الأجناس . . .

وأن في هدايتهم الى الايمان صلاحا خاصا وعاما . . .

فأخرج طائفة منهم من الظلمات الى النور . . .

وحباهم بأنواع العطايا بالبهجة والسرور .

وقيض الله تجارا أخرجوهم الى الآفاق...

خصوصا في أيام استيلاء التتار على البلاد المشرقية والشمالية... وعلى الأتراك القفجاقية...

فجاءت منهم طائفة الى البلاد الشامية والديار المصرية في أواخر الدولة الأيوبية...»

بأبخس الأثمان؟!

«فاشتراهم ملوك بني أيوب... بأبخس الأثمان... ليزينوا بهم مواكبهم في البلدان.

وليتخذوهم عدة عند النوائب...

ولما فيهم من الشجاعة والإقدام في المصائب...

ثم صاروا ملوكا؟!

«ثم صارت منهم جماعة أمراء كبارا مقدّمين...

وجماعة منهم ملوكا سلاطين...

فملك منهم من الذين جُلبوا وبيعُوا الى يومنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة)[1] أحد عشر نفسا... وهم:

«الملك المعزّ أيبك التركماني... وهو أول الملوك الأتراك الذين ملكوا الديار المصرية...

---

(١) هو وقت تأليف ذلك الكتاب.

والملك المظفّر قُطُز...

والملك الظاهر بيبرس...

والملك المنصور قلاوون...

والملك العادل كتبغا...

والملك المنصور لاجين...

والملك المظفر بيبرس الجاشنكير...

والملك الظاهر برقوق...

والملك المؤيد شيخ...

والملك الظاهر ططر...

والملك الأشرف برسباي...»

الملك الصالح أوّل من اهتم بتحصيلهم؟!

«وأول من اهتم بتحصيلهم... واحتفل بتجميلهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب...

وأخوه الملك العادل ابو بكر...

ثم ولده الملك الكامل...

ولما آلت المملكة الى ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب استكثر منهم استكثارا بذل فيهم المجهود... وبلغ منهم المقصود... وبذل فيهم الأموال الكثيرة... وأصرف لأجلهم الأشياء الغزيرة...»

الحاجة الى رجل؟!

« ثم لما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب...

وقتل ابنه الملك المعظم...

ولّوا زوجة أستاذهم الملك الصالح المسماة بشجرة الدرّ... لقصدهم استمرار الملك في البيت الأيوبي ولا يخرج عنه...

وتصدر الأمور كلها منه...

فكانوا لها أطوع من البنان... بُرْهةً من الزمان...

ثم لما رأو أنّ ذلك قصر بحقوق المُلك وأزْرَى عليه...

واشتدت أطماع من كان بالشام اليه...

فاحتاجوا إلى إقامة رجل يزاحم بمنكبه المناكب... ويُباهي بموكبه المواكب... ويقوم بتدبير البلاد والعباد...

فأقاموا الأمير عز الدين أيبك... بالسلطنة...»

سيف الدين قُطُز ..
نائب السلطنة ..؟!

ثم في هذه السنة (الخمسين بعد الستمائة)..

« أمَّرَ الملك المعزّ.. كبار مماليكه..

« ورتَّب سيف الدين قُطُز نائب السلطنة..

« وكان أكبرهم.. وأقدمهم هجرةً..

« وأعظمهم لديه أثرةً..

« وقطع خبز حُسام الدين بن أبي علي الهذباني.. الذي كان نائباً بالديار المصرية

في السنة الحادية والخمسين بعد الستمائة؟!

« استهلت هذه السنة والخليفة: هو المستعصم بالله..

« وصاحب الديار المصرية: الملك المعز أيبك..

« وكان نائب السلطنة بالديار المصرية:

سيف الدين قطز..

« والوزير بها: الصاحب شرف الدين الفائزي..

« وكان الأمير الكبير في الديار المصرية: فارس الدين أقطاي..

« واستفحل أمره في هذه السنة.. وانحازت إليه البحرية..

« وأرسل إلى ابن الملك المظفر صاحب حماة يلتمس وصلته.. ويخطب إليه ابنته..

« وكان الرسول إليه الصاحب فخر الدين محمد..

« فلما وصل إلى صاحب حماة تلقاه بالإجلال وإجابة السؤال..

« وجهّز ابنته بما يليق بمثلها..

أقطاي لا يعبأ بالمَلِك؟!

« فَسَمت نفس الأمير فارس الدين.. وعلت رتبته..

وكثرت أتباعه وشيعته.. على البحرية وغيرهم من الخوشداشيَّة.. بالاقطاعات والصلات والإطلاقات..

« وكانوا لا يعبأون بالملك المعزّ!!!

« ولا يلبِّسونه ثوب عزٍّ..

« بل يهصمون جانبه.. ويُعَطّلون مراسِمَه ومآربه..

« وينتقصون حرمته!!..

« ويغضون منه!!!

« وهو يُسِّرُ ذلك كله ويخفيه.. ويُضمرُه في نفسه ولا يُبديه..

« وأعمل الحيلة على قتل الأمير فارس الدين أقطاي!!!

« لأنه الرأس.. وإذا قتله لا يثبت بنيان البحرية بغير أساس..

« فانقضت هذه السنة وهم على هذه الحال..

« والبحرية منهمكون على اللّذات والصيد..

« والمعزّ ينصب لهم حبائل الكيد...»!!!

مصرع . . .

فارس الدين . . .

أقطاي . . . ؟!

في السنة الثانية والخمسين بعد الستمائة..

مقتل فارس الدين أقطاي؟!

« وفي هذه السنة عزم الملك المعزّ على قتله..

« واتفق مع مماليكه على حيلة..

« فلما كان في شهر شعبان أرسل إليه يستدعيه... مُوهِماً له أنه يستشيره في مهمات من الأمور... ويعرض عليه آراء من التدبير...

« وقد كمن له كميناً من مماليكه.. وراء قاعة الأعمدة[1] بالقلعة..

« وقرَّر معهم أنه إذا مرّ مجتازًا بالدهليز يبتدرونه بسُرعة.. ويعاجلونه بالصَرْعة...

« فلما وردت إليه رسالة المعزّ.. بادر بالركوب في نفر يسير من مماليكه.. من غير أن يُعلم أحدًا من خوشداشيَّته..

لثقته بتمكن حرمته..

(١) قاعة كبرى بالقلعة برسم خوند الكبرى...

« وطلع القلعة آمنًا... ولم يَدْر بما كان له كامنًا!!!

« فلما وصل الى باب القلعة منع مماليكه من الدخول معه!!!

« وثب عليه المماليك المعزيَّة... فَعَلَوْه بالمشرفيّة.. وأذاقوه كأس المنيَّة...

« وقتلوه على مكانته.. ولم يُنجده أحد من بطانته!!!

قُطُز اشترك في المؤامرة؟!

« وفي تاريخ النويريّ: وفي هذه السنة... اغتال الملك المعزّ أيبك التركماني المستولي على مصر... خُشْداشه الفارس أقطاي الجمدار...

« وأوقف له في بعض دهاليز الدور التي بقلعة الجبل... ثلاثة مماليك وهم:

« قُطُزْ...

« وبهادُر...

« وسنجر الغتمي...

« فلما مرّ بهم أقطاي ضربوه بسيوفهم فقتلوه!!!

إجرام أقطاي؟!

« ترجمة أقطاي:

« ويقال له: أقطايا...

« كان من مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب... وكان أحد الجمداريّة عنده..

« ثم ترقت به الحال إلى أن استولى على الديار المصرية..
« وتقدم على البحرية الذين أهلكوا الناس...
« وقال ابن واصل:
« وكان أقطاي إذا ركب يقتل بين يديه جماعة بأمره...
« وكانت خزائن مصر بيده..
« وكان أصحابه يأخذون أموال الناس وحريمهم وأولادهم أخذاً باليد!!!
« ولا يقدر أحد على منعهم...
« ويدخلون حمامات النساء فيأخذون منهنّ من يختارون!!!
« وكان أقطاي يمنع الملك المعزّ أيبك من الاستقلال بالسلطنة...
« وكان الاسم للملك الأشرف موسى بن يوسف... فلما قتل أقطاي استقلّ أيبك بالسلطنة.. وأبطل الأشرف المذكور بالكلية...
« والأشرف المذكور آخر من خُطب له من بيت بني أيوب بالسلطنة في مصر...

أنصار أقطاي يهربون الى الشام؟!

« ولما شاع الخبر بموته قتيلا..
« وبلغ خوشداشيَّته الأمر.. ضاق بهم الفضاء.. وحاق بهم القضاء..
« وتحققوا أنهم متى تلبَّثوا أخذوا بالنواصي والأقدام..
« وألحقوا به في الإعدام..
« فأجمعوا أمرهم على التوجه الى الشام!!!

بيبرس كان من الذين فرّوا ؟!

وكان منهم من الأمراء الأعيان:

« الأمير ركن الدين بيبرس البندقداريّ...

« والأمير سيف الدين قلاوون الألفي...

« والأمير شمس الدين سنقر الأشقر...

« والأمير بدر الدين بيسَري الشمسي...

« والأمير سيف الدين سُكُز...

« والأمير سيف الدين برامُق... وغيرهم...

« فرأوا الرواح خيراً من الإقامة..

« واتفقوا وخرجوا ليلا فوجدوا باب المدينة الذي قصدوا الخروج منه مغلقًا...

« فأضرموا فيه نارا... وهو الباب المعروف بباب القرّاطين[1]... وتوجَّهوا على حميَّةٍ نحو البلاد الشامية..

« وقصدوا الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب وغيرهما ليكونوا عنده من جملة العساكر...

مصادرة أموالهم ؟!

« ولما أصبح المعزّ بلغه تسحُّبهم من المدينة..

« فأمر بالحوطة على أملاكهم وأموالهم ودورهم وغلالهم... ونسوانهم.. وغلمانهم... وأتباعهم وأشياعهم...

(١) هو باب القاهرة الشرقي... وعرف بعد الحريق باسم « الباب المحروق »...

« واستُصفيَت أموالهم وذخائرهم وشؤنُهم ...

« واستتر مَن تأخَّر منهم ...

« واختفى من انقطع من الأتباع عنهم ...

« ونُودي عليهم في الأسواق والشوارع والطرقات والقوارع.. بتهديد من يأوي منهم أحد عنده..

« وتمكن الملك المعزّ من المملكة..

« وارتجع ثغر الإسكندرية[1] إلى الخاصَّة السلطانية..

« وأبطل ما قرَّره من الجبايات.. ووزَّعه من الجنايات..

« وأعفى الرعية من المطالبات والمصادرات...

وصول البحرية إلى الشام؟!

« ولما وصلت البحرية المذكورون الهاربون من مصر.. إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام.. أطمعوه في مُلك مصر..

« فرحل من دمشق بعسكره.. ونزل غمتا من الغَوْر.. فأرسل إلى غزّة عسكرا فنزلوا بها...

« وكذلك برز المعزّ أيْبك صاحب مصر الى العبّاسة... وخرجت السنة وهم على ذلك!!!

---

(١) « كان الملك المعز أيبك قد أقطع الفارس أقطاي ثغر الإسكندرية سنة ٦٥٠هـ...

مَلِك . . .

من ملوك المغول . .

يعلن إسلامه . . ؟!

ذِكْرُ هلاك..

« صَرْطَقْ... بن دُوشى خان... بن جنكزخان... صاحب البلاد الشمالية:

« مات في هذه السنة حتف أنفه.. وكانت مدة مملكته سنةً وشهرا.. ولم يكن له ولد يلي المملكة بعده..

« وكان أول من دخل البلاد الشمالية ومملكتها من أولاد جنكز خان... دوشي خان.

« واستقر بها الى حين هلاكه..

« فملكها بعده ولده باطوخان..

« ثم ملكها بعده ولده الثاني صرطق...

بركة خان فى كرسى المملكة؟!

« جلس بركة خان في كرسي المملكة...

« وبركة خان هذا هو ابن باطوخان.. بن دُوشى خان... بن جنكزخان...

أَسْلَمَ وَأَسلَمَتْ زوجته؟!

« ولما ملك البلاد... أسلم... وحسن إسلامه!!!

« وأقام منار الدين... وأظهر شعائر المسلمين!!!

« وأكرم الفقهاء... والعلماء.. وأدناهم وأبرَّهم... ووصلهم.. واتخذ المساجد.. والمدارس بنواحي مملكته..

« وأخذ بالإسلام جُلّ عشيرته..

« ونفذ أمرُه.. وامتدَّت أيامه!!

« وأسلمت زوجته « ججك خاتون »!!!

« واتخذت لها مسجدا من الخيام... يحمل معها حيث اتجهت... ويضرب حيث نزلت.

السبب في إسلام بركة خان؟!

« وكان السبب في إسلام بركة خان...أن الشيخ نجم الدين الكبراء.. كان قد ظهر صيتُه وارتفع ذكرُه...

« ففرَّق مُريديه إلى المدن العظام...ليظهروا بها شعائر الإسلام...

وأرسل سعد الدين الحمويّ إلى خراسان...

« وكمال الدين السرياقي الى تركستان...

« ونظام الدين الجُندي إلى قفجاق...

« وسيف الدين الباخرزي إلى بخاري...

« فلما استقر الباخرزي ببخارى أرسل تلميذا له كبير المحلّ عنده...الى بركة خان!!!

« فـاجتمـع بـه ووعظـه... وحبّـب إليـه الإسلام... وأوضـح لـه منهاجه...

« فأسلم على يده!!!

« واستمال بركة عامّة أصحابه الى الإسلام!!!

المَلِك يسعى اليه بنفسه؟!

« وقصد أن يبرّ الشيخ بشيء قبالة ما أسداه إليه...

« فأمر له ببايزة[1] بالبلاد التي هو فيها.. ليكون وقفا على الفقراء والصلحاء وتجبى أموالها إليه...

« وأرسل البايزة إلى الباخرزي...

« فلما وصلته قال لرسوله: ما هذه؟...

« قال: هذه تكون في يد الشيخ تحمي كل مَن يكون من جهته...

« فقال: اربطها على حمار... ثم أرسله إلى البريّة.. فإن حمته من الذهاب فأنا أقبلها.. وإن كانت لا تحمي الحمار فما عساه لي فيها؟!

« وأبى أن يقبلها!!!

« فعاد الرسول وأخبر بركة بما قال الشيخ...

« فقال بركة: أنا أتوجّه إليه بنفسي!!!

« فسار نحوه...

« ووصل إلى بخارى...

(١) البايزة: لوحة من الذهب أو الفضة... وينقش على وجهها إسم الله وإسم السلطان وعلامة خاصة... وتهدى الى الأشخاص الذين يتمتعون بثقة المغول... كما أنها تتضمن أمر الملك لسفرائه... ويتمتع حاملها بامتيازات خاصة فله الطاعة على كل من في الدولة المغولية.

« وأقام بباب الشيخ ثلاثة أيام!!!

« وهو لا يأذن له في الدخول إليه!!!

« حتى تحدَّث معه بعض مُريديه...

« فقال: إن هذا ملكٌ كبير..،

« وقد أتى من بلد بعيد... يلتمسُ التبرك بالشيخ والحديث معه... فلا بأس بالإذن له...

« فأذن له عند ذلك!!!

« فدخل إليه وسلم عليه...

« وكان الشيخ متبرقعًا فلم يكشف له عن وجهه..

« ووضع بين يديه مأكولًا... فأكل منه...

« وجدَّد إسلامه على يده..

« وعاد عنه إلى بلده»!!!

هولاكو . . .
يتفق سِرًّا . . .
مع الخونة . . .؟!

في السنة الرابعة والخمسين بعد الستمائة...

« استهلت هذه السنة، والخليفة: هو المستعصم بالله...

« وصاحب الديار المصرية: السلطان الملك المعز أيبك التركماني الصالحي...

هولاكو يتصل بالخونة؟!

« ذكر بقية الحوادث:

« ومنها: أن هلاون[1]... دخل بغداد في زيّ تاجر عجمي[2]... ومعه مائة حمل حرير...

« واجتمع بالوزير مُؤيّد الدين محمد بن العلقمي...

« وبأكابر الدولة...

(١) هو « هولاكو ».

(٢) وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي ببغداد: السلوك جـ١ ص٤٠٠.

« وكانـوا قـادريـن على مَسْكِـهِ... إلا أنهم خـانـوا الله ورسـولـه والمسلمين...

« ثم خرج بعدما أتقن أمره معهم...»!!!

شجرة الدُّرّ . . .

تقتل زوجها . . .

الملك المعزّ أيبك . . . ؟!

في السنة الخامسة والخمسين بعد الستمائة...

« استهلت هذه السنة، والخليفة: وهو المستعصم بالله...

« وسلطان الديار المصرية: الملك المعز أيبك الصالحي...

« ونائبه فيها الأمير سيف الدين قُطُز...

« ولكن أيبك قتل في هذه السنة...

وفاة الملك المعزّ أيبك الصالحي؟!

« والكلام فيه على أنواع:

الأول، في ترجمته:

هو السلطان الملك المعزّ عز الدين أيبك الصالحي النجمي التركماني المعروف بالجاشنكير...

كان من أكبر مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب...

وكان من الأخصاء عند أستاذه الملك الصالح...

وترقى حاله عنده إلى أن غلب على الديار المصرية... بعد قتل الملك

المعظم تورانشاه بن الملك الصالح...

وصار أتابك العساكر بالديار المصرية...

ثم استقرَّ في السلطنة...»

الثاني، في سيرته:

«كان ديّنًا صيّنًا عفيفًا كريما... شجاعًا... ومكث في الملك نحوا من سبع سنين...»

الثالث، في مقتله:

قال ابن كثير:

قتلته زوجته شجرة الدرّ؟!

«قتلته زوجته شجرة الدرّ... أم خليل... التي كانت حظية أستاذه الملك الصالح... وكان سبب ذلك أنه كان قد تغيّر على شجرة الدرّ... بعد قتل الفارس أقطاي..

وبلغها أنه أرسل يخطب بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليتزوجها..

وأنه اتفق أنه قبض على جماعة من البحرية... وأرسلهم الى القلعة ليعتقلوا بها...

وكان منهم شخص يُسمّى أيدكين الصالحيّ...

فلما وصلوا تحت الشبّاك الذي تجلس فيه شجرة الدُّر...

قال لبعض الطواشية: يا طواشي... خُونَدْ جالسة في الشباك؟...

قال: نعم...

فخدم أيدكين المذكور برأسه ورفعها إلى الشباك...

وقال لها بالتركي: المملوك أيدكين البَشْمقدار... والله ياخُونَد... ما عملنا ذنبًا يوجب مَسْكنَا!... إلا أنه لما سيَّر يخطب بنت بدر الدين لؤلؤ ليتزوجها ما هان علينا لأجلك.. فإنا نحن تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم... فعاتبناه على ذلك... ما ترين؟...

قال: وأومأت بمنديل من الشباك...

يعني: قد سمعتُ كلامك...

فلما نزلوا بهم الى الجبّ قال أيدكين: إن كان حبسنا فقد قتلناه!...

كيف كانت الجريمة؟!

« فلما رجع المعز أيبك من لعب الأكرة... ودخل الحمام...

رتبت شجرة الدّر له في الحمام... سنجر الجوجري... مملوك الطواشي محسن... والخدام الذين كانت اتفقت معهم... فقتلوه في الحمام...

وأرسلت في تلك الساعة أصبع المعزّ أيبك وخاتمه الى الأمير عز الدين الحلبي الكبير... وطلبت منه أن يقوم بالأمر...

فلم يجسر على ذلك...

وكان قتله يوم الثلاثاء... الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة!!!

أخبار الجريمة تنتشر؟!

وفي تاريخ بيبرس:

«ولما بلغ شجرة الدُرّ أن المعز أرسل يخطب لنفسه بنتي صاحب حماة... وصاحب الموصل... أخذتها الحرّة... وملكتها الغيرة... لما قصد من الاستبدال عنها والاعتزال منها... فحملها ذلك على قتله...

ولما كان يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ربيع الأول...

ركب إلى الميدان كعادته... وعاد إلى القلعة من عشيته...

فلما دخل الحمام أحاط به جماعة من الخُدّام... وأذاقوه كأس الحمام...

«وأشاعوا بكرة يوم الأربعاء أنه قد مات فُجاءة في جوف الليل!!!

ودعوا بالثبور والويل... وأعولت النساء في الدور...

وأردن التلبيس بهذه الأمور... فلم تتم الحيلة على مماليكه... لأنهم فارقوه بالعشي سليما... وألفوه في الصباح عديما!!!

فعلموا أنه قد قتل غيلة»!!!

طفل في العاشرة . . .

يتسلطن في المملكة . . .

مكان أبيه القتيل . . . ؟!

ولما ظهر الخبر بقتل المعزّ... أراد مماليك المعزّ... قتل شجـرة الدُّر!!!

فجاءها المماليك الصالحية!!!

واتفقت الكلمة على إقامة... نور الدين عليّ... بن المعزّ أبيك سلطانًا...

ولقبوه الملكم المنصور!!!

اجراءات انتقامية؟!

ونقلت شجرة الدر من دار السلطنة إلى البرج الأحمر...

وصلبوا الخدام الذين اتفقوا معها على قتل المعزّ...

وهرب سنجر الجوجري... ثم ظفروا به وصلبوه...

واحتيط على الصاحب بهاء الدين بن حنا لكونه وزير شجرة الدّر...

سيف الدين قُطُز يعزل قائد عام القوات المسلحة؟!

وفي يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر منها:

اتفقت مماليك المعز أيبك مِثْل:

سيف الدين قُطُز..

وسنجر الغتمي... وبهادر...

وقبضوا على علم الدين سنجر الحلبي... وكان قد صار أتابك العساكر (قائد عام) للملك المنصور نور الدين علي...

ورتّبوا في أتابكيّة أقطاي المُسْتَعرِب الصالحيّ!!!

قُطُز يتولى شئون الدولة؟!

وفي تاريخ بيبرس:

استقر نور الدين عليّ في السلطنة بعد موت أبيه...

وكان جلوسه في السادس والعشرين من ربيع الأول... سنة خمس وخمسين وستمائة...

وعمره يومئذ حول عشر سنين...

وكان يميل إلى اللهو واللعب لصباه...

وقام الأمير سيف الدين قُطُز المعزّي بأتابكيته.. وتدبير دولته...

وكان ذا بأس وشهامة!!!

وحزم وصرامة!!!

فأمسك الصاحب شرف الدين الفائزي... وعزله عن الوزارة... واحتيط على أمواله... وأسبابه... وذخائره... وكان مثريا من

المال... وله ودائع كثيرة متفرقة... فتُتبِّعت... واستخرجت من أربابها وحلت...

واعتقل ثم قُتِل...

وسببُ قتله أنّ والدة الملك المنصور هذا كانت مجفوّة من زوجها الملك المعز...

وكان قد اتخذ سراري وصيَّرهن عند الوزير... فنقمت عليه...

وسأل أن يبذل عن نفسه مالّا فلم ترض إلا بقتله...

واستوزر بعده الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير!!!

الأمير سيد الدين قُطُز . . .

ينتصر على أمراء . . .

المماليك البحرية . . . ؟!

في هذه السنة...

حصلت وحشة بين البحرية الصالحية... وبين الملك الناصر يوسف...

فخافوه وخافهم على نفسه...

ففارقوه وخرجوا من دمشق!!!

وقال المؤيد:

وفي هذه السنة نُقِل إلى الناصر يوسف أن البحرية يريدون أن يفتكوا به... فاستوحش خاطره منهم... وتقدَّم إليهم بالانتزاع عن دمشق... فساروا إلى غزة...

أمراء البحرية يدبرون لغزو مصر؟!

وقال بيبرس:

خرجوا ووصلوا نابلس...

واتفقوا على التوجُّه إلى الملك المغيث بالكرك...

فتوجَّهوا إليه وهم:

الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري...
والأمير سيف الدين قلاون الألفي...
والأمير سيف الدين بلبان الرشيدي... وغيرهم...
فأكرمهم الملك المغيث وقبلهم وبَّرهم ووصلهم...
والتمسوا منه المساعدة على قصد الديار المصرية...
وإمدادهم بعسكر لتصير لهم يدٌ قوية!!!
فسيَّر معهم عسكره حسبما سألوه...
فساروا في نحو ألف فارس...

قُطُز يُحطِّم هجوم المماليك البحرية؟!

وبلغ الخبر الأمير سيف الدين قُطُز... والأمراء المصريين... فجرَّدوا عسكرًا إلى الصالحية...

وقال المؤيد:

إلى العباسة...

ووصل من البحرية جماعة مُقْفزين إلى القاهرة... منهم الأمير عز الدين الأفرم... فأكرموه وأفرجوا عن أملاكه...

فلما كان ليلة السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة... أقبلوا إليهم واتفقوا معهم...

فانكسر البحرية ومن معهم من العسكر الكركي...
وأُسِر الأمير سيف الدين قلاون الألفي...
والأمير سيف الدين بلبان الرشيدي...
وقتل الأمير سيف الدين بُلغان الأشرفي

وانهزم الباقون... وعادوا إلى الكرك وهم خائبون...
قال المؤيد:
انهزم عسكر المغيث والبحـريَّـة وفيهـم بيبرس البنـدقـداري الذي تسلطن بعد ذلك!!!

وفي بغداد فتنة؟!

وفيها كانت فتنة عظيمة ببغداد... بين الرافضة وأهل السنة...
فنهبت الكرخُ ودُور الرافضة...
حتى دور قرابات الوزير ابن العلقمي...
وكان ذلك من أقوى الأسباب في ممالأته للتتار!!!

مصرع . . .

الملكة . . .

شجرة الدُّرّ . . .؟!

شجرة الدُّرّ بنت عبدالله... أم خليل... التركية...

كانت من حظايا الملك الصالح نجم الدين أيوب... بن السلطان الملك الكامل... بن العادل أيوب...

وكان له ولد منها يسمى خليل... كان من أحسن الصور... مات صغيرًا

كانت شديدة الحبّ للملك الصالح؟!

وكانت تكون في خدمة الملك الصالح... لا تفارقه حضرًا وسفرًا...

من شدَّة محبتها له!!!

وقد ملكت الديار المصرية بعد مقتل ابن زوجها الملك المعظم توران شاه...

فكان يُخطب لها... ويُضرب السكة باسمها!!!

وعلّمت على المناشير مدّة ثلاثة أشهر...

ثم تملك الملك المعز أيبك...
ثم تزوجها بعد تملكه الديار المصرية...
ثم غارت عليه لما بلغها أنه يريد أن يتزوج ابنة صاحب الموصل...
فعملت عليه حتى قتلته...
فتمالى عليها مماليك المعزّ فقتلوها...
وألقوها على مزبلة ثلاثة أيام!!!
ثم نقلت إلى تربة لها بالقرب من قبر الست نفيسة...
وفي تاريخ النويري:
وفي سادس عشر ربيع الآخر من هذه السنة... قُتلت شجرة الدرّ... وألقيت خارج البرج الأحمر[1]... وحملت إلى تربة كانت قد عملتها فدفنت بها!!!

قُطُز يشرف على قتلها؟!

وكانت تركية الجنس!!!
وقيل: كانت أرمنية الجنس!!!
وكانت مع الملك الصالح في الاعتقال بالكرك!!!

---

(١) البرج الأحمر... بساحل الفسطاط...

شخصية قوية؟!

وكانت قوية النفس...

ولما علمت أنها قد أحيط بها... أتلفت شيئًا كثيرًا من الجواهر واللآلئ... كسرته في الهاون... لا لها ولا لغيرها!!!

لما سمع مماليك المعزّ بقتله... أقبلوا صحبة مملوكه الأكبر سيف الدين قُطُز...

فقتلوها... وألقوها على مزبلةٍ... غير مستورة العورة... بعد الحجاب المنيع... والمقام الرفيع!!!

هولاكو . . .

يُدَمِّر بغداد . . .

ويقتل الخليفة . . .

ويقتل ٢ مليون . . .؟!

في السنة السادسة والخمسين بعد الستمائة . . .
استهلت هذه السنة ، وفيها فتن ومصائب . . .
وأعظمها قتل الخليفة المستعصم بالله . . .
وانقراض الخلافة العباسية ببغداد . . .
واستيلاء هلاوُن (هولاكو) على بغداد . . .
وفساد التتار في البلاد . . .

ذِكْر أخْذ هلاون بن طلوخان بن جنكزخان مدينة بغداد وقتله الخليفة المستعصم بالله ؟ !

وفي أول هذه السنة . . . قصد هلاون بعساكر التتار بغداد . . .

وسار إليها فنازلها . . .

وكان معه من المقدّمين الأكابر : كُوكك نُوين . . . وألكان نُوين . . . وكتبغا نُوين . . . وقدغان نُوين . . . وهلاجو نُوين . . . ومَركديه نُوين . . . وصُغُون حاق . . .

ومن الملوك داود ملك الكرج بجيشه...

وأرسل إلى بَيْجُو يستدعيه ليشهد هو ومن معه المُحاصَرة ويستكثرهم في المُحاصَرة...

فلما وصل إليه الرسول أزمع التأخير... واستشار الأمراء الذين معه في ذلك... فأبوا إلا التوجُّه إلى هلاون... فاضطرَّه الأمر إلى المسير إليه...

وتوجهوا جميعًا إلى هلاون...

هزيمة التتار؟!

فنزل بَيْجُو ومن معه بالجانب الغربي من بغداد...

وهلاون ومن معه بالجانب الشرقي...

وحاصروا بغداد أشدَّ الحصار...

ولما أحاطوا بها... وخيَّموا حولها...

خرج إليهم عسكرها بعَدده وعُدده... وحشده ومدده...

صحبة مجاهد الدين أيبك... الدوادار الكبير... وكان له شأن عظيم... وقدر جسيم... وكان مقدّمًا على عشرة آلاف فارس...

فندبه الخليفة لقتال التتار...

فلما التقى المسلمون معهم... كانت الكسرة على التتار... فولّوا الأدبار... وتبعهم الدوادار... سحابة ذلك النهار... وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا... وجا غفيرًا!!!

التتار يهجمون وينتصرون؟!

وحجز بينهم الليل... فكفّت المسلمون الذين مُعتقدين أنهم قد استظهروا... ولأعدائهم قهروا...

فلما أصبحوا لم يشعروا إلا وقد تراجع التتار إليهم!!!

وحملوا عليهم... فكسروهم وهزموهم... لأن أكثرهم كان قد تسلّل في الليل إلى المدينة مُوقنًا بالنصرة!!!

التتار يبدءون ا[illegible]ئع؟!

فلما تمت هذ الكسرة... ولّى المنهزمون ليرجعوا إلى بغداد... فحال بينهم وبينها بَثْقٌ انبثق في تلك الليلة... وساحت منه مياه دجلة... وشملت الطُرُق والمسالك... وأدركت العسكر... فأغرقت بعضهم هنالك...

وقتل التتار... مجاهد الدين أيبك الدوادار... وولده أسد الدين... وكان مقدّمًا على خمسة آلاف...

وسليمان بن بَرْجَم... أمير علم الخليفة...

وجماعة من الأمراء البغاددة... وأعيان العسكر... وأسروا خلقًا!!!

وأما هؤلاء الثلاثة.. فإنهم حملوا رءوسهم إلى الموصل... ونصبوها على باب المدينة ترهيبًا لصاحبها... وتخويفًا لأهلها!!!

التتار يفتحون بغداد عنوة؟!

وارتاع الخليفة أشدّ ارتياع... وأخذت أسبابُه في الانقطاع...
وأصبح لا يدري... وإن كان حازمًا أقُدّامه خير أم وراءهُ...
وأغلقت أبواب مدينة بغداد...
فأحاط بها التتار... وضايقوها بالحصار...
فافتتحوها عنوة!!!
ودخلوها غدوة في العشرين من محرم هذه السنة...
فبذلوا في أهلها المناصل... وأوردوهم من حياض الموت أمرّ المناهل...
وأكثروا الأيامى واليتامى والأرامل...
ولم يرحموا شيخًا كبيرًا... ولا طفلًا صغيرًا!!!

خلاف بين السُّنَّة والشيعة يؤدي إلى الضياع؟!

وكان سبب ذلك أن وزير الخليفة... مؤيد الدين بن العلقمي كان رافضيًا...
وكان أهل الكرخ روافض[1]...
فجرت فتنة بين السُّنة والشيعة ببغداد على جاري عادتهم في السنة الماضية...
فأمر أبو بكر ابن الخليفة... وركن الدين الدوادار... العساكر...

---

(١) والشيعة يسكنون بالكرخ... وهي محلة مشهورة بالجانب الغربي من بغداد...

فنهبوا الكرخ... وهتكوا النساء... وركبوا فيهن الفواحش...

فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي... وكاتب التتار وأطمعهم في مُلك بغداد...

وكان عسكر بغداد مبلغ مائة ألف فارس... فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتار متحصل إقطاعاتهم... وبقي عسكر بغداد دون عشرين ألف فارس...

وأرسل ابن العلقمي إلى التتار أخاه يستدعيهم... فساروا قاصدين بغداد فجرى ما جرى!!!

الجواري الجميلات يرقصن حول الخليفة؟!!

وقال ابن كثير في تاريخه:

وأحاطت التتار بدار الخلافة... يرشُقونها بالنبال من كل جانب...

حتى أصيبت جارية... كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه...

وكانت من جملة الحظايا...

وكانت مولدة تسمى عرفة...

جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها...

وهي ترقص بين يدي الخليفة!!!

فانزعج الخليفة من ذلك... وفزع فزعًا شديدًا...

وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه... فإذا عليه مكتوب: إذا أراد الله إنفاذ فضائله وقدره سلب ذوي العقول عقولهم!!!

فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز...

وكثرت الستائر على دار الخلافة!!!

هولاكو يُهاجم بغداد بمائتي ألف مقاتل؟!

وكان قدم هلاون بجنوده كلها...

وكانوا نحوًا من مائتي ألف مقاتل...

في ثاني عشر المحرم من هذه السنة...

وهو شديد الحنق على الخليفة بسبب ما كان ما تقدم من الأمر الذي قدره الله وقضاه...

وهو أن هلاون لما كان أول بروزه من همدان متوجهًا إلى العراق...

أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي على الخليفة... بأن يبعث إليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عما يُريده من قصد بلادهم...

فخذل الخليفة عن ذلك دواداره أيبك وغيره...

وقالوا: إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار... بما يبعثه إليهم من الأموال...

وأشاروا بأن يبعث بشيء يسير...

فأرسل شيئًا من الهدايا...

فاحتقره هلاون!!!

وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دواداره المذكور وسليمان شاه...

فلم يبعثهما إليه...

ولا بالى به حتى أزف قدومه...

ووصل إلى بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة... فجرى ما جرى!!!

هولاكو... يحتقر الخليفة ثم يقتله؟!!

ذكر خروج الخليفة إلى هلاون وقتله:

ولما غلب التتار على بغداد...

كان أول من برز إلى هلاون... الوزير مُؤيّد الدين بن العلقمي!...

فخرج في أهله وأصحابه... فاجتمع بهلاون... ثم عاد...

فأشار على الخليفة بالخروج إليه... والمثول بين يديه... لتقع المصالحة... على أن يكون نصف الخراج من أرض العراق لهم ونصفه للخليفة!!!

موكب الأذلَّة بين يدي هولاكو؟!

فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان...

ولما اقتربوا من منزل هلاون... حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً... فخلص الخليفة بهؤلاء!!!

وأنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت... وقتلوا عن آخرهم!!!

وأحضر الخليفة بين يدي هلاون...

فسأله عن أشياء كثيرة...

وقيل: انه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت!!!

ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خواجا نصير الدين الطوسي... والوزير مؤيد الدين بن العلقمي وغيرهما...

والخليفة تحت الحوطة والمصادرة...

فأحضر من دار الخلافة شيئًا كثيرًا من الذهب والحلي والمصاغ والجوهر والأشياء النفيسة!!!

قتل الخليفة خَنْقًا ؟!

وقد أشار أولئك الملاعين الرافضة وغيرهم من المنافقين على هلاون أن لا يُصالح الخليفة...

وقال الوزير: ولو وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عامًا أو عامين...

ثم يعودُ الأمر على ما كان عليه قبل ذلك...

وحَسَّنوا له قتل الخليفة...

فلما عاد الخليفة إلى هلاون أمر بقتله!!!

ويقال: إن الذي أشار بقتله الوزير بن العلقمي... ونصير الدين الطُوسّي...

وكان النصير عند هلاون حظيًّا قد استصحبه في خدمته لما فتح قلعة آلموت وانتزعها من أيدي الاسماعيلية...

فلما قدم هلاون تهيّب قتل الخليفة...

فهوّن عليه قتلَه الوزير والنصير...

فقتلوه رَفْسًا... وهو في جَوْلق... لئلا يقع على الأرض شيء من دمه...

خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم!!!

وقيل: بل خُنق...

وقيل: بل غَرِق!!!

مذبحة الأكابر ؟!

وفي تاريخ النويري:

خرج الوزير ابن العلقميّ... فتوثق منه لنفسه... وعاد إلى الخليفة وقال: إن السلطان هلاون يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم... ويريد أن يُزوّج ابنته من ابنك أبي بكر... وحسّن إليه الخروج إليه!!!

فخرج الخليفة في جمع من الأكابر من أصحابه... فأنزل في خيمة...

ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل... فاجتمع هناك جميع سادات بغداد ومدرسوها... وكان فيهم الشيخ محي الدين بن الجوزي وأولاده...

وجعل الوزير يخرج إلى التتار طائفة بعد طائفة...

فلما تكاملوا قتلهم التتار عن آخرهم!!!

ثم مدّوا الجسْر... وعدّى بَيْجُو ومن معه...

قتل جميع سكان بغداد ؟!!

وبذلوا السيف في بغداد... وهاجموا دار الخلافة!!!

وقتلوا كلّ من فيها من الأشراف!!!

ولم يسلم منهم إلا من كان صغيرًا فأخذ أسيرًا!!!

ودام القتل والنهبُ في بغداد أربعين يومًا!!!

حتى صار الدم في الأزقة كأكباد الإبل...

ثم نودي بالأمان!!!

وفي تاريخ ابن كثير:

ولما قتلوا هؤلاء السادات مالوا على البلد... فقتلوا جميع من قدروا

عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان!!!

ودخل كثير من الناس في الآبار

وأماكن الحشوش وقنى الوسخ... ويكمنون فيها ولا يظهرون!!!

وكان جمع من الناس يجتمعون في الخانات ويغلقون عليهم الأبواب... فيفتحها التتار إما بالكسر أو بالنار...

ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي المكان... فيقتلونهم على الأسطحة حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة!!!

وكذلك في المساجد والجوامع والربط!!!

ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى... ومن التجأ إليهم... وإلى دار الوزير محمد بن العلقمي الرافضي... عليه ما يستحق...

وعادت بغداد... بعدما كانت أنس المدن كلها... كأنها خراب... ليس فيها أحد إلا القليل من الناس... وهم في خوف وجوع!!!

القتلى ألفي ألف نفس؟!

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين فقيل:

ثمانمائة ألف نفس!!!

وقيل: ألف ألف وثمانمائة ألف!!!

وقيل: بلغت القتلى ألفي ألف نفس؟!!!

وقتل مع الخليفة ولده الأكبر أبو العباس أحمد... وله خمس وعشرون سنة...

ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن... وله ثلاث وعشرون سنة...

وأسير ولده الأصغر مبارك...

وأسِرت اخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم...

وأسِر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر - فيما قيل -

وقتل استادار الخليفة الشيخ الفاضل محي الدين بن يوسف الشيخ أبي الفرج بن الجوزي... وكان عدوّ الوزير ابن العلقمي...

وقتل أولاده الثلاثة عبد الرحمن وعبدالله وعبد الكريم...

وأكابر الدولة واحدًا بعد واحد...

منهم: الدوادار الصغير مجاهد الدين أيبك... وشهاب الدين سليمان شاه... وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد...

أفظع أساليب الذبح؟!

وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس...

فيخرج بأولاده ونسائه...

فيذهب إلى مقبرة الخلال تجاه المنظرة...

فيذبح كما تذبح الشاة!!!

ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه!!!

وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة... صدر الدين علي بن النيار...

وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن!!!

وتعطلت المساجد والجماعات والجُمُعات مدة شهور ببغداد...

ولما انقضى أمد المدة المقدرة... وانقضت الأربعون يومًا... بقيت بغداد خاوية على عروشها... ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس...

جبال من الجِيَف الآدمية المنتنة؟!

والقتلى في الطرقات كأنها التلول...
وقد سقط عليهم المطر... فتغيرت صورهم...
وأنتنت البلد من جيفِهم... وتغير الهواء...
فحصل بسببه الفناء والوباء الشديد...
فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح...
فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون!!!

الموتى يخرجون؟!

ولما نودي ببغداد بالأمان... خرج من كان تحت الأرض بالمطامير والقنى والمغاير كأنهم الموتى إذا نُبِشوا من القبور!...
وقد أنكر بعضهم بعضًا... فلا يعرف الوالد ولده... ولا الأخ أخاه...
وأخذهم الوباء الشديد... فتفانوا وتلاحقوا بمن سلف من القتلى!!!

هولاكو يرحل عن بغداد ؟!

وكان رحيل هلاون عن بغداد في جمادى الأولى من هذه السنة إلى مقر مُلكه...

وفوض أمر بغداد إلى الأمير علي بهادر...

فوَّض إليه الشحنكية بها إلى الوزير مؤيد الدين بن العلقمي...

فلم يمهله الله تعالى حتى أخذه في مستهل جمادى الآخرة!!!

هولاكو يريد احراق بغداد ؟!

ويقال: إن هلاون عزم على إحراق مدينة بغداد... لما أراد الرحيل عنها...

فقال له كتبغا نُوين: إنّ هذه المدينة أمّ المدن ومقصد التجار... فإذا أبقاها الملك حصل منها مال جزيل...

فأبقاها... وشحَّن[1] عليها...

وسار عنها إلى الفرات!!!

(١) أي عيَّن عليها شحنة ـ صاحب شرطة.

هولاكو . . .

يسير إلى الشام . . .

ويفتح ميافارقين . . .

ويستأصل أهلها . . . ؟!

ثم سار هلاون (هولاكو) عن بغداد... بعد انقضاء الشتاء... إلى الشام...

وجرّد جيشًا إلى ميافارقين... صحبة صَرْطق نُوين... وقَطغان نُوين...

وكان بها الملك الكامل... ناصر الدين محمد... بن الملك المظفر شهاب الدين غازي... بن الملك العادل أبي بكر... بن أيوب... بن شادي...

التتار يفتحون المدينة؟!

فحاصروها ونصبوا عليها المنجنيقات من كل ناحية..
فقاتلت أهلها وامتنعوا عن تسليمها...
وصبروا أنفسهم على الحصار الشديد والجوع المبيد...
حتى أكلوا الميتات والدوابّ والسنانير والكلاب...
وطال عليهم الأمد... وقلت منهم القوة والجلد...

فاستولى التتار على المدينة وفتحوها... وكانت مدة مقامهم على حصارها سنتين...

التتار يبيدون أهلها؟!

فقتلوا وسَبَوا من أهلها خلقًا كثيرًا!!!

وفني الجند من كثرة القتال واشتداد النزال... وأُسِر من بقي منهم...

وأخذ صاحبها ناصر الدين الملك الكامل... وتسعة نفر من مماليكه...

وأحضروا بين يدي هلاون... فقتلوا إلا مملوكًا واحدًا اسمه قراسنقر... أبقاه هلاون... فاستبقاه وسلم إليه شيئًا من الطيور الجوارح وحظي عنده!!!

الملوك . . .

يركعون رُعْبًا . . .

ويستسلمون لهولاكو . . .؟!

ذِكرُ ما جرى لأصحاب البلاد مع هَلاوُن:

الملك صاحب الموصل يستسلم؟!

منها:

أن الملك الرحيم... بدر الدين لؤلؤ... صاحب الموصل...

سار إلى هلاون مُهادنًا!!!

فاستصحب معه شيئًا كثيرًا من الهدايا النفيسة... والأمتعة الجلية... والجواهر الثمينة...

ومفاتيح القلعة والمدينة!!!

وإنما حداه على ذلك الشفقة على رعيته... والخوف على أهل مملكته!!!

فمنعه أهل البلد من المسير إليه حَذَرًا عليه...

فلم يمتنع فسار...

فلما وصل إلى هلاون... أوقف بين يديه... حامِلًا كفَنَه على كتفيه!!!

وقدم هداياه...

فقبلها منه... وأقبل عليه...

وقال لمن حضره من أكابر الخانات ومُقدمي التُمانات: هذا رجل عاقل ذو سياسة!!!

ثم خلع عليه... وكتب له يرْليغ بتفويض مملكة الموصل إليه على قاعدته...

فعاد إلى بلده ومعه يَرليغ...

وفرح الناس به فرحًا شديدًا...

إلا أنه لم تطُلْ أيامه حتى مات!!!

وثائق الغَزْو . . .
المغُولي . . . ؟!

كان التتار ... من أبرع الناس في حرب الأعصاب ...

يفتتحون هجومهم ... بالتهديد والوعيد ...

فإن استسلم الضحايا فنعمًا هي ... وإلا كان الهجوم الكاسح ... لا يبقي ولا يذر ...

«أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة ... مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل من يتعلق به ...» !!!

وإليك شيئًا من هذه الوثائق التاريخية:

رسالة تاجر مجهول من الري إلى أصحابه بالموصل سنة ٦٢٧ هـ يحدثهم عن أعمال المغول في الري وأذربيجان

إن الكافر - لعنه الله - ما نقدر أن نصفه ولا نذكر جموعه حتى لا تنقطع قلوب المسلمين فإن الأمر عظيم. ولا تظنوا أن هذه الطائفة التي وصلت إلى نصيبين والخابور، والطائفة الأخرى التي وصلت إلى إربل ودقوقا كان قصدهم النهب، إنما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردهم أم لا ! فلما

عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع، وأن البلاد خالية من ملك وعساكر فقوي طمعهم وهم في الربيع يقصدونكم وما يبقى عندكم مقام، إلا إن كان في بلاد الغرب، فإن عزمهم على قصد البلاد جميعها فانظروا لأنفسكم.

[الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ١٢ ـ ٥٠٣]

وصية منكوقا آن لأخيه هولاكو لما سلمه قيادة الجيش الذي أرسله لفتح الغرب (غربي الصين)

إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها، فينبغي أن تسير من توران إلى إيران:

سر من توران إلى إيران مظفراً

واعل باسمك إلى الشمس الساطعة

وحافظ على تقاليد جنكيز خان وقوانينه، في الكليات والجزئيات وخص كل من يطيع أوامرك ويجتنب نواهيك، في الرقعة الممتدة من جيحون حتى أقاصي بلاد مصر، بلطفك وبأنواع عطفك وإنعامك؛ أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه وكل من يتعلق به. وابدأ باقليم قهستان في خراسان، فخرب القلاع والحصون:

اجعل كِرْدكوه وقلعة لنبه صر[1]

بحيث يكون رأسها إلى أسفل وجسدها إلى أعلى

ولا تبق في الدنيا قلعة قط

(١) قلعتان مشهورتان من قلاع الملاحدة في إيران تأتيان بعد قلعة ألموت الشهيرة في الحصانة والمنعة.

ولا كومة واحدة من التراب

فإذا فرغت من هذه المهمة، فتوجه إلى العراق، وأزل من طريقك اللور والأكراد الذين يقطعون الطرق على سالكيها. وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقًا. أما إذا تكبر وعصى، فألحقه بالآخرين من الهالكين. كذلك ينبغي أن تجعل رائدك في جميع الأمور العقل الحكيم والرأي السديد، وأن تكون في جميع الأحوال يقظًا عاقلًا، وأن تخفف على الرعية التكاليف والمؤن، وأن ترفه عنهم. وأما الولايات الخربة فعليك أن تعيد تعميرها في الحال. وثق أنك بقوة الله العظيم تفتح ممالك الأعداء حتى يصير لك فيها مصايف ومشاتي عديدة. وشاور دوقوز خاتون في جميع القضايا والشؤون.»[جامع التواريخ للهمذاني، جـ ٢، ق ١ ٢٣٦ - ٢٣٧]

بيان وجهه هولاكو إلى حكام إيران سنة ٦٥١ هـ طالبًا مساعدتهم في إخضاع قلاع الملاحدة كألموت وغيرها

بناء على أمر القاآن فقد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وإزعاج تلك الطائفة. فإذا أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم وستحمد لكم مواقفكم. أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم فإننا حين نفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة، فإننا لا نقبل عذركم ونتوجه إليكم فيجري على ولاياتكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم.

[جامع التواريخ للهمذاني جـ ٢، ق ١ - ٢٤٠]

رسالة هولاكو إلى المستعصم بالله آخر خلفاء العباسيين يعاتبه ويهدده ويطلب منه الخضوع سنة ٦٥٥ هـ

لقد أرسلنا إليك رسالة وقت فتح قلاع الملاحدة وطلبنا مددًا من الجند، ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند، وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مسيرنا إلى الطغاة فلم ترسل إلينا الجند والتمست العذر. ومهما تكن أسرتك عريقة وبينك ذا مجد تليد

فــإن لمعــان القمــر قــد يبلــغ درجــة
يخفــي معهــا نــور الشمس الســاطعــة

ولا بد أنه قد بلغ سمعك على لسان الخاص والعام ما حل بالعالم والعالمين على يد الجيش المغولي منذ عهد جنكيزخان إلى اليوم، والذل الذي حاق بأسر الخوارزميين والسلجوقية وملوك الديالمة والأتابكة وغيرهم ممن كانوا ذوي عظمة وشوكة، وذلك بحول الله القديم الدائم، ولم يكن باب بغداد مغلقًا بوجه أية طائفة من تلك الطوائف، واتخذوا منها قاعدة ملك لهم، فكيف يغلق في وجهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان؟! ولقد نصحناك من قبل. والآن نقول لك: احذر الحقد والخصام، ولا تضرب المخصف بقبضة يدك، ولا تلطخ الشمس بالوحل فتتعب. ومع هذا فقد مضى ما مضى، فإذا أطاع الخليفة فليهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه ويحضر لمقابلتنا. وإذا لم يرد الحضور فليرسل كلًا من الوزير وسليمان شاه والدواتدار ليبلغوه رسالتنا دون زيادة أو نقص، فإذا استجاب لأمرنا فلن يكون من واجبنا أن نكن له الحقد، وسنبقي له على دولته وجيشه ورعيته. أما إذا لم يصغ إلى النصح وآثر الخلاف والجدل، فليعبئ الجند وليعين ساعة القتال فإننا متأهبون لمحاربته وواقفون له على استعداد. وحينما أقود الجيش إلى بغداد، مندفعًا بسورة الغضب، فإنك لو كنت مختفيًا في السماء أو في الأرض.

فســـوف أنـــزلـــك مـــن الفلـــك الدوار
وسـألقيـك مـن عليـائـك إلى أسفـل كـالأسـد
ولـــن أدع جيشـــا فـــي مملكتـــك
وسأجعل مدينتك واقليمك وأراضيـك طعمـة للنـار

فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بسمع العقل والذكاء، وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله.

[جامع التواريخ للهمذاني جـ ٢، ق ١ - ٢٦٨]

رسالة الخليفة الجوابية حملها لهولاكو شفهيًا شرف الدين ابن الجوزي وبدر الدين محمود وزنكي النخجواني

أيها الشاب الحديث! المتمني قصر العمر، ومن ظن نفسه محيطًا ومتغلبًا على جميع العالم مغترًا بيومين من الإقبال، متوهمًا أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم، لماذا تطلب منا شيئًا لم تجده:

كيـف يمكـن أن تتحكـم في النجـم وتقيـده
بـــالـــرأي والجيـــش والســـلاح

ألا ليعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب، ومن الملوك إلى الشحاذين ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعملون بالدين، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي. إنني حينما أشير بجمع الشتات، سأبدأ بحسم الأمور في إيران، ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص في موضعه، وعندئذ سيصير وجه الأرض جميعه مملوءًا بالقلق والاضطراب، غير أنني لا أبغي من وراء تردد الجيوش أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح أو القدح، خصوصًا وأنني مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد ولسان واحد، وإذا كنت مثلي تزرع بذور

المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم، فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان، وإن كنت تريد الحرب والقتال:

فلا تتـــوان لحظـــة ولا تعتــــذر
إذا استقـــر رأيـــك عـلى الحـــرب
إن لي ألوفًا مؤلفـة مـن الفـرسـان والرجـالـة
وهـــم متـــأهبـــون للقتـــال

وإنهم ليثيرون الغبار من ماء البحر وقت الحرب والطعان

[جامع التواريخ للهمذاني جـ ٢ ، ق ١ ٢٦٩ - ٢٧٠]

رسالة جوابية من هولاكو إلى الخليفة المستعصم بالله وقد امتلأ غضبًا للرسالة السابقة

إن الله الأزلي رفع جنكيزخان ومنحنا وجه الأرض كله من الشرق إلى الغرب، فكل من سار معنا وأطاعنا واستقام قلبه ولسانه، تبقى له أمواله ونساؤه وأبناؤه، ومن يفكر في الخلاف والشقاق لا يستمتع بشيء من ذلك.

ثم عاتب الخليفة بشدة قائلًا:

لقد فتنك حب الجاه والمال والعجب والغرور بالدولة الفانية، بحيث لم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير. وإن في أذنيك وقرًا فلا تسمع نصح المشفقين، ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك، وإذن فعليك أن تكون مستعدًا للحرب والقتال، فإني متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد.

ولو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى فتلك مشيئة الله العظيم.

[جامع التواريخ للهمذاني جـ٢ ، ق ١ - ٢٧١]

رسالة ثانية من الخليفة إلى هولاكو أرسلها له على يد بدر الدين قاضي بندنيجان

لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحوال، إذ أن كل ملك ـ حتى هذا العهد ـ قصد أسرة بني العباس ودار السلام بغداد كانت عاقبته وخيمة. ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك وأصحاب الشوكة من السلاطين، فإن بناء هذا البيت محكم للغاية، وسيبقى إلى يوم القيامة. وفي الأيام السالفة قصد يعقوب بن الليث الصفار الخليفة وتوجه بجيش لجب إلى بغداد فلم يبلغ أربه، إذ مات بعلة الزحار، والأمر كذلك مع أخيه عمرو، إذ قبض عليه إسماعيل بن أحمد الساماني وكيله وأرسله إلى بغداد، لكي يجري عليه الخليفة ما حكم به القضاء. وكذلك جاء البساسيري بجيش عظيم من مصر إلى بغداد وقبض على الخليفة وسجنه في الحديثة[1]. وفي بغداد جعل الخطبة والسكة مدة عامين باسم المستنصر الذي كان خليفة الإسماعيلية في مصر. وفي النهاية علم طغرل بك بذلك فأسرع من خراسان وقصد البساسيري في جيش جرار وقبض عليه وقتله، وأخرج الخليفة من السجن وأعاده إلى بغداد وأجلسه على عرش الخلافة. كذلك قصد السلطان محمود السلجوقي بغداد فعاد منهزمًا وهلك في الطريق. وجاء محمد خوارزمشاه بجيش عظيم قاصدًا استئصال هذه الأسرة فابتلي في روابي استر آباد بالثلج والعواصف بسبب غضب الله عليه وهلك أكثر جنده، وعاد خائبًا خاسرًا ثم لاقى ما

(١) ورد في نص هذه الرسالة بعض الأخطاء التاريخية ومن الواجب تصحيحها: فالبساسيري لم يأت بجيش قط من مصر وإنما اعتماده على جيشه الخاص وحليفه الأمير البدوي قريش. كذلك التجأ الخليفة العباسي القائم إلى مدينة الحديثة وهناك استقر في إحدى قلاعها ولم يسجن وإنما لجأ إلى أمير بدوي اسمه مهارش بن مجلي فأجاره وحماه. كما ان البساسيري خطب في بغداد للخليفة الفاطمي مدة تقرب من السنة فقط.

لاقى من جدك جنكيز خان في جزيرة آبكسون. فليس من المصلحة أن يفكر الملك في قصد أسرة العباسيين، فاحذر عين السوء من الزمان الغادر.

[جامع التواريخ للهمذاني جـ ٢، ق ١ ٢٧٥، ٢٧٦]

رسالة قائد طلائع الجيش المغولي الزاحف على بغداد سلطان جوق إلى قبجاق قراسنقر قائد طلائع جيش الخليفة، وذلك لما زحف المغول على بغداد وتهيأ الطرفان للحرب الفعلية

إنني وإياك من جنس واحد [ذلك أن الاثنين كانا من أصل خوارزمي] وبعد البحث والتدقيق التحقت بخدمة هولاكو بسبب الفقر والاضطرار، ودخلت في طاعته، وهو الآن يعاملني معاملة طيبة، فأنقذ أنت أيضًا حياتك وترفق بها، واشفق على أولادك وقدم الطاعة حتى تأمن على دارك وأولادك ومالك وروحك من هؤلاء القوم.

جواب قراسنقر على رسالة سلطان جوق السابقة

من يكون هؤلاء المغول حتى يقصدوا أسرة العباسيين. لقد شاهدت هذه الأسرة الكثير من أمثال دولة جنكيز خان التي تترنح من كل ريح عاصف. ثم إن العباسين قد استمروا حكامًا أكثر من خمسمائة سنة، وكل مخلوق قصدهم بسوء قضى عليه الزمان. وإذن فليس من العقل والكياسة أن تدعوني لأنضم إلى جانب الغصن الغض لدولة جنكيز خان. وكان الأولى بالود والمسالمة ألا يتجاوز هولاكو خان الري بعد فراغه من فتح قلاع الملاحدة،

وان يعود إلى خراسان وتركستان، لأن قلب الخليفة متأثر وساخط بسبب زحف هولاكو بجيوشه. فإذا كان هولاكو نادمًا حقًا على فعلته فعليه أن يعيد الجيش إلى همدان، لكي نجعل الدواتدار شفيعًا فيتضرع بدوره إلى الخليفة عله يزول ألمه ويقبل الصلح فيغلق بذلك باب القتال والجدال.

[جامع التواريخ للهمذاني جـ ٢، ق ١ ٢٨٣ - ٢٨٤]

رسالة هولاكو للخليفة قبل الهجوم النهائي على بغداد مباشرة

إذا كان الخليفة قد أطاع فليخرج، وإلا فليتأهب للقتال. وليحضر إلينا قبل كل شيء الوزير وسليمان شاه والدواتدار ليسمعوا ما نقول:

[جامع التواريخ للهمذاني ج ٢، ق ١ - ٢٨٤]

الرُّعْب . . .
من التَّتَار . . .
يُوَحِّد الشام ومصر . . . ؟!

في السنة السابعة والخمسين بعد الستمائة...

استهلت هذه السنة... وليس للمسلمين خليفة... والفتن قائمة...

وبنو جنكيزخان قد أظهروا الفساد... وأهلكوا العباد... وأخربوا البلاد...

وسلطان الديار المصرية: الملك المنصور نور الدين علي... بن الملك المعز أيبك التركماني...

ونائبه ومدبر مملكته الأمير سيف الدين قُطُز...

وصاحب دمشق وحلب وغيرهما: السلطان الملك الناصر... يوسف... بن الملك العزيز... بن الملك الظاهر... بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب...

والحرب قائمة بينه وبين المصريين...

هجوم التتار يُوَحِّد بين الشام ومصر ؟!

ولكنه رجع عن ذلك لكثرة الأراجيف بقصد التتار الديار الشامية!!!

حتى أنّ هلاون أرسل إلى الناصر المذكور يستدعيه إليه...

فأرسل الناصر ولده العزيز... وهو صغير... ومعه هدايا كثيرة وتحف سنية...

فلم يحتفل به هلاون!!!

وغضب على ابنه!!!

إذ لم يقدم إليه أبوه!!!

وقال: أنا الذي أسير إلى بلاده بنفسي...

فانزعج الناصر لذلك!!!

وبعث بحريمه وأهله إلى الكرك ليُحصنهم بها...

وخاف أهل دمشق خوفًا شديدًا... حين بلغهم أن التتار قد قطعوا الفرات...

وصار منهم جماعة كثيرة إلى الديار المصرية في زمن الشتاء...

ومات كثير منهم... ونُهِبَ آخرون!!!

هولاكو يستولي على حلب؟!

وأقبل هلاون بجنوده يقصد نحو الشام...

ونازل حران وملكها...

واستولى على البلاد الجزرية...

وأرسل ولده شموط بن هلاون إلى الشام...

فوصل إلى ظاهر حلب في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة...

وكان الحاكم في حلب يومئذ الملك المعظم توران شاه بن السلطان صلاح الدين نائبًا عن ابن أخيه الملك الناصر...

فخرج في عسكر حلب لقتالهم...

ولم يكن من الرأي خروجه...

وأكمن لهم التتار في باب إليّ المعروف بباب الله...

وتقاتلوا عند بانْقُوسا...

فاندفع التتار قدامهم حتى خرجوا عن البلد...

ثم عادوا عليهم...

وهرب المسلمون طالبين المدينة... والتتار يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد...

واختنق جماعة من المنهزمين في أبواب البلد...

ثم رحل التتار إلى عزاز فتسلموها بالأمان!!!

الملك الناصر . . .

سلطان دمشق وحلب . . .

يستنجد بالمصريين . . . ؟!

وكان الملك الناصر... قد أرسل قبل ذلك... القاضي الوزير... كمال الدين عمر بن أبي جرادة... المعروف بابن العديم...

إلى الديار المصرية...

رسولاً يستنجد المصريين على قتال التتار...

فإنهم قد اقترب قدومهم إلى الشام...

وأنهم قد استولوا على حران وبلاد الجزيرة وغيرها في هذه السنة...

وقد جاز شُموط بن هلاون الفرات... واقترب من مدينة حلب!!!

مؤتمر عاجل يحضره عز الدين بن عبد السلام؟!

فعقد لذلك مجلس بالديار المصرية... بين يدي الملك المنصور بن الملك المعز أيبك التركماني...

وحضر قاضي القضاة بالديار المصرية... بدر الدين السنجاري...

وحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام...

وأفاضوا الكلام...
فيما يتعلق بأخذ شيء من أموال الناس لمساعدة الجند...
وكانت العمدة على ما يقوله ابن عبد السلام...
فكان حاصل كلامه أنه قال:
« إذا لم يبق في بيت المال شيء...
« وأنفقتم الحوائص[1] الذهب وغيرها من الزينة...
« وتساويتم والعامة في الملابس... سوى آلات الحرب...
« ولم يبق للجندي سوى فرسه التي يركبها...
« ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء...
« إلا أنه إذا دهم العدوّ... وجب على الناس كافة أن يدفعوهم بأموالهم وأنفسهم »!!!

الملك الناصر يتراجع أمام زحف التتار؟!

ثم إن الملك الناصر برز إلى وطاة برزة[2]... في جحافل كثيرة من الجيش... والمطوعة... والأعراب... وغيرهم.

ولما سمعوا ما فعل شموط بن هلاون على حلب... وعلموا ضعفهم عن مقاومة المغول... انفض ذلك الجمع... ولم يصبر لا هو ولا هم... فإنا لله وإنا إليه راجعون!!!

(١) جمع حياصة،.. وهي الحزام أو المنطقة.
(٢) برزة: قرية بالغوطة.

سلطنة...

سيف الدين قُطُز...

النائب بالديار المصرية...؟!

ولما عقد المصريون المجلس...

حين قدم إليهم رسول الملك الناصر... صاحب دمشق... وهو كمال الدين بن العديم المذكور...

قالوا: لا بُدَّ من سلطان قاهر... يقاتل التتار...

« وهذا صبيّ صغير... لا يعرف تدبير المملكة[1]...

يعني السلطان الملك المنصور ابن الملك المعز...

وكان كذلك... فإنه كان يركب الحمير الفُرَّة... ويلعب بالحمام مع الخدام...

اختيار قُطُز؟!

واجتمع الأمراء الكبار... وأعيان العساكر... على أنه لا غنى للمسلمين من ملك يقوم بدفعه... وينتدب لمنعه... ويذبّ عن حوزة الدين...

---

(١) ينسب المقريزي هذا القول إلى الأمير سيف الدين قُطُز.

وذلك لما تحققوا قصد هلاون الديار الشامية... وامتداده إلى ممالك الإسلام...

واتفقوا على إقامة الأمير سيف الدين قُطُز المُعِزّي...

سُلطانًا!!!

لأنه كبير البيت...

ونائب الملك...

وزعيم الجيش...

وهو معروف بالشجاعة والفروسية...

ورضي به الأمراء الكبار...

فأجلسوه على سرير الملك...

ولقبوه الملك المظفَّر!!!

القبض على المنافسين؟!

وكان الأمير... علم الدين العتميّ...

وسيف الدين بهادر... وهما من كبار المُعِزّية غائبين في رمي البندق... حين تسلطن المظفَّر...

ولما حضرا... قبض عليهما... واعتقلا!!!

وكان جلوس الملك المظفَّر على تخت السلطنة في الرابع من ذي الحجة من هذه السنة بقلعة الجبل...

وكان ذلك كله بحضرة كمال الدين بن العديم...

فأعاد قطز الجواب إلى الملك الناصر يوسف... بأنه سينجده... ولا يقعد عن نصرته...

ورجع ابن العديم إلى دمشق بذلك!!!

ترحيل الملك الطفل وأمّه إلى الخارج؟!

ويقال: إن الملك المظفّر قُطُز... لما قبض على الملك المنصور نور الدين علي... بعثه هو وأمّه وأخاه قاقان إلى بلاد الأشكري[1].

وفي تاريخ بيبرس:

وأما المنصور علي بن المعز... فإنه اعتقل مدّة في الأيام المظفرية... ثم سفّر في الأيام الظاهرية هو وأخوه إلى الاسكندرية... وسُيِّروا منها إلى القسطنطينية!!!

وانقضت دولة المَلِك الطفل؟!

وأمسك من الأمراء من خاف غائلته... وحذر مخالفته...

وكانوا قد تفرقوا في الصيد... فصادهم بمصائد الكيد... ولم ينجهم من يده أيد...

وانقضت دول المنصور... فكانت مدة مملكته سنتين وستة أشهر!!!

(١) المقصود الدولة البيزنطية...

فظائع . . .

هولاكو . . .

عند فتح حلب . . . ؟!

في السنة الثامنة والخمسين بعد الستمائة...

استهلت هذه السنة... وليس للمسلمين خليفة!!!

وملك العراقين وخراسان وغير ذلك من بلاد الشرق... هلاون بن طولي خان بن جنكيزخان ملك التتار...

وأخوه منكوقان بن طولي خان... ملك الأقاليم المتصلة ببلاد خطا وغيرها... وما وراء النهر وغيرها...

وصاحب الدار المصرية... السلطان الملك المظفَّر قُطُز...

وصاحب دمشق وحلب: الملك الناصر يوسف...

وصاحب الكرك والشوبك: الملك المغيث بن الملك العادل... وهو حزب مع الملك الناصر صاحب دمشق على المصريين...

ومعهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري...

وكان عزمهم قتال المصريين وأخذ البلد منهم!!!

ولكن التتار أشغلوا كل أحد بنفسه...

ووقع الجفل في البلاد الشامية بمجيء هلاون إليها...

أسْر مائة ألف نفس؟!

غضب هلاون... وأحاط التتار بحلب ثاني صفر... وهجموا في غد ذلك اليوم...

وقتل من المسلمين جماعة كثيرة...

واشتدت مضايقة التتار لحلب...

وبذلوا السيف على المسلمين...

ودام القتل والنهب في حلب من يوم الأحد المذكور إلى يوم الجمعة رابع عشر صفر!!!

فأمر هلاون برفع السيف... ونودي بالأمان!!!

وقال بيبرس في تاريخه:

قتل من حلب خلق كثير لا يكاد يُحصون!!!

وسبي من النساء والذراري... زهاء مائة ألف نفس... من الأشراف والأعيان...

وبيعوا في الجزائر الافرنجية والبلاد الأرمنية!!!

وبقي السيف مبذولًا ...

ودم الإسلام ممطولًا ...

سبعة أيام وسبع ليال...

ثم نودي برفع القتل والقتال!!!

أسلوب . . .
هولاكو . . .
في تهديد الملوك . . . ؟!

كان التَّتَار أُولي وقاحة في مخاطبة ضحاياهم من السلاطين والملوك...
يخاطبونهم على أنهم حثالة لا وزن لها...
وإنما عليهم فقط أن يفسحوا الطريق لقوات المغول التي لم تُقْهَر ولا تُقهر!!!
وإليك أمثلة من خطابات التهديد المغولي:

رسالة هولاكو إلى الناصر الأيوبي صاحب حلب بعد سقوط بغداد وقبل زحفه على سورية وقد كتبها له بالعربية نصير الدين الطوسي؟!

أما بعد: فقد نزلنا سنة ست وخمسين وستمائة فساء صباح المنذرين، فدعونا ملكها فأبى فحق عليه القول فأخذناه أخذًا وبيلًا. وقد دعوناك إلى طاعتنا، فإن أتيت فروح وريحان، وإن أبيت فخزي وخسران، فلا تكن كالباحث عن حتفه بظلفه والجادع مارن أنفه بكفه فتكون من الأخسرين أعمالًا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، فما ذلك على الله

بعزيز والسلام على من اتبع الهدى.

[جامع التواريخ للهمذاني جـ ٢ ، ق ١ - ٢٩٦]

رسالة أخرى من هولاكو إلى الناصر صاحب حلب ودمشق؟!

يعلم سلطان مصر[1] ناصر - طال بقاؤه - أنا لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم فقتلناهم بسيف الله. ثم خرج إلينا رؤساء البلد ومقدموها فكان قصارى كلامهم سببًا لهلاك نفوس تستحق الإهلاك. وأما ما كان من صاحب البلد فإنه خرج إلى خدمتنا ودخل تحت عبوديتنا فسألناه عن أشياء كذبنا بها فاستحق الاعدام وكان كذبه ظاهرًا ووجدوا ما عملوا حاضرًا. أجب ملك البسيطة ولا تقولن قلاعي المانعات ورجالي المقاتلات. ولقد بلغنا أن شرذمة من العسكر التجأت إليك هاربة وإلى جنابك لائذة.

أيـــن المفـــر ولا مفـــر لهـــارب ولنـــا البسيطـــان الـــثرى والمـــاء

فساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماءها أرضها وطولها عرضها والسلام.

رسالة أخرى من هولاكو إلى الناصر؟!

خدمة ملك ناصر - أطال عمره - أما بعد: فإنا فتحنا بغداد واستأصلنا مُلكها ومَلكِها. وكان ظن، وقد ضن بالأموال ولم ينافس الرجال، أن ملكه يبقى على تلك الحال وقد علا ذكره ونما قدره فخسف في الكمال بدره.

(١) الصحيح «سلطان دمشق».

إذا تـــم أمـــــر بـــــدا نقصــــــه   تـــوقـــع زوالًا إذا قيـــل تـــمّ

ونحن في طلب الازدياد على ممر الآباد، فلا تكن كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم. وابد ما في نفسك إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. أجب دعوة ملك البسيطة تأمن شره وتنل بره. واسع إليه برجالك وأموالك ولا تعوق رسولنا والسلام.

رسالة أخرى من هولاكو إلى الناصر؟!

أما بعد: فنحن جنود الله بنا ينتقم ممن عتا وتجبر وطغى وتكبر، وبأمر الله ما ائتمر. إن عوتب تنمر، وإن روجع استمر وتجبر. ونحن قد أهلكنا البلاد وأبدنا العباد وقتلنا النسوان والأولاد، فأيها الباقون أنتم بمن مضى لاحقون. ويا أيها الغافلون أنتم إليه تساقون. ونحن جيوش الهلكة لا جيوش المملكة. مقصودنا الانتقام وملكنا لا يرام، ونزيلنا لا يضام، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر، ومن سيوفنا أين المفر.

أيـــن المفـــر ولا مفـــــر لهـــارب   ولنـــا البسيطـــان الـــثرى والمـــاء

ذلت لهيبتنـــا الأســـود فـــأصبحـت   في قبضتي الأمـــــراء والخلفــــــاء

ونحن إليكم صائرون ولكم طالبون،   ولكـــم الهرب وعلينـــا الطلـــــب

ستعلم ليلى أي ديـــن تـــداينـــت   وأي غـريم بـالتقـاضي غـــريمهـــا

دمرنا البلاد وأيتمنا الأولاد وأهلكنا العباد وأذقناهم العذاب وجعلنا عظيمهم صغيرًا، وأميرهم أسيرًا. أتحسبون أنكم منا ناجون أو متخلصون؟ وعن قليل سوف تعلمون على ما تقدمون. وقد أعذر من أنذر. والسلام.

[شذرات الذهب للحنبلي جـ ٥ ٢٧٢ ـ ٢٧٣]

زعماء الشام...
يأوون...
إلى مصر...؟!

ولما كان الناصر بدمشق... وبلغ إليه قصد التَّتار حلب...

برز من دمشق إلى برزة في أواخر السنة الحالية...

وجفل الناس بين يدي التتار...

وصار الملك المنصور صاحب حماة إلى دمشق... ونزل مع الناصر ببرزة...

وكان هناك مع الملك الناصر... بيبرس البندقداري... من حين هرب من الكرك...

والتجأ إلى الناصر يوسف...

واجتمع مع الملك الناصر على بَرْزَة أمم عظيمة من العساكر...

محاولة لاغتيال الناصر؟!

ولما دخلت هذه السنة والملك الناصر ببرزة... بلغه أن جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله والفتك به...

فهرب من الدهليز إلى القلعة (يعني قلعة دمشق)!!!

وبلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم... هربوا على حية إلى جهة...

بيبرس يسير إلى غزة؟!

وكذلك سار بيبرس البندقداري وجماعته إلى غزة...

وأشاع المماليك الناصرية أنهم لم يقصدوا قتل الملك الناصر... وإنما كان قصدهم أن يقبضوا عليه ويسلطنوا أخاه الملك الظاهر... لشهامته...

ولما جرى ذلك هرب الملك الظاهر المذكور خوفًا من أخيه الناصر يوسف... وكان الظاهر المذكور شقيق الناصر... أمهما أم ولد تركية...

ووصل الملك الظاهر إلى غزة...

واجتمع عليه من بها من العساكر... وأقاموه سلطانًا!!!

السلطان قُطُز يدعو بيبرس إلى مصر؟!

ولما جرى ذلك كاتب الملك المظفَّر قُطُز... صاحب مصر... بيبرس البندقداري...

وبذل له الأمان... ووعده الوعود الجميلة!!!

ففارق بيبرس البندقداري الشاميين... وسار إلى مصر... في جماعة من أصحابه...

فأقبل عليه الملك المظفر قُطُز...

وأنزله في دار الوزارة...

وأقطعه قليوب وأعمالها!!!

الملك الناصر يمضي إلى التتار؟!

وأما الملك الناصر يوسف... بقي متحيرًا إلى أين يتوجه... وعزم على التوجه إلى الحجاز...

وكان له طبر دار كردي اسمه حسين... فحسَّن له المضي إلى التتار... وقصد هلاون...

فاغتر بقوله... ونزل بُركة زيزا... وسار حسين الكردي إلى كُتُبُغَا نُوين نائب هلاون... فأرسل كتبغا نوين إليه وقبض عليه وأحضره إلى مدينة عجلون...

(ثم) بعث به كتبغا إلى هلاون... وهو على حلب بعد...

فأقبل عليه هلاون ووعده بردّه إلى مملكته...

هولاكو يسأل عن جيش مصر؟!

وفي تاريخ بيبرس:

بقي الملك الناصر عند هلاون هو وولده العزيز...

وعزم هلاون على العود من حلب إلى العراق...

فسأل الملك الناصر وقال له: من بقي في ديار مصر من العسكر؟...

فقال له: لم يبق بها إلا نفر قليل من العسكر... وأقوام من مماليك بيتنا... لا يبالى بهم...

قال: فكم يكفي التجريد لقتالهم؟...

قال: يكفي القليل من الجيش...

وحقَّر عنده أمرهم وهوّنه...

فجرد هلاون كُتْبُغَا نُوِين... ومعه اثني عشر ألف فارس...
وأمره أن يقيم بالشام...
وحفزه العود لما اتصل به من اختلاف حصل بين إخوته...
فعاد وأصحب معه الملك الناصر وولده العزيز...

كُتْبُغَانُوِين يفتح دمشق؟!

ووصل كتبغانوين إلى دمشق... وكانت قلعتها بعد ممتنعة... وبها وال اسمه بدر الدين بن قزل، فعصى... وأبى أن يسلمها إلى نواب التتار...
فحاصره كُتْبُغَا أيامًا... ففتحها عنوة...
وأمر بقتل متوليها...
وقُتِل... وقُتِل معه نقيب القلعة...

الفرنج بالساحل يقدمون الهدايا؟!

ونزل كتبغا على المرج...
فحضر إليه رسل الفرنج الذين بالساحل بالهدايا والتقادم...
لأنهم خافوا على بلادهم من تطرق التتار إليها... وغارتهم عليها...
وشرعوا في تحصين مدائنهم وحصونهم...
وحضر إليه الملك الظاهر أخو الملك الناصر... وكان مقيمًا بصرخد... فأحسن إليه وأقره على حاله... وأعاده إلى مكانه...

مقدمة المعركة الخالدة؟!

وأرسل إلى السلطان الملك المظفر قُطُزْ...

يطالبه ببذل ا عة أو تعبئة الضيافة!!!

هولاكو...

يعود الى الشرق...

ويأمر بفتح دمشق...؟!

ذِكْرُ حال قلعة حلب:

استمر الحصار على القلعة... واشتدت مضايقة التتار لها نحو شهرين... ثم سلمت بالأمان يوم الاثنين الحادي عشر من ربيع الأول...

وخربت أسوار البلد وأسوار القلعة...

وانقضت المملكة الناصرية...

وبانقضائها انقضت الدولة الأيوبية في البلاد الشامية... كما زالت من الديار المصرية.

رحيل هولاكو من حلب وإرساله جيشا إلى أخذ دمشق؟!

ثم رحل هلاون إلى حارم... وطلب تسليمها...

فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين والي قلعة حلب...

فأحضره هلاون وسلموها إليه...

فغضب هلاون من ذلك...

وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم... وسبى النساء!!!
ثم رحل هلاون بعد ذلك وعاد إلى الشرق!!!

هولاكو يأمر بتخريب أسوار المدن؟!

وأمر عماد الدين القزويني بالرحيل الى بغداد... فسار اليها... وجعل بحلب مكانه رجلا أعجميا...

وأمر هلاون بخراب أسوار حلب... فأخربت...

وكذلك أمر بخراب أسوار حماة... فأخربت وأحرقت زردخاناتها... وبيعت الكتب التي بدار السلطنة بقلعة حماة بأبخس الأثمان!!

وكان هلاون قد أمر الملك الأشرف صاحب حمص بخراب قلعة حمص أيضا... فلم يخرب منها إلا شيئا قليلا لأنها مدينته...

وأما دمشق فإنهم لما ملكوا المدينة بالأمان لم يتعرضوا الى قتل ونهب...

وعصت عليهم قلعة دمشق... فحاصرها التتار...

وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة... وضايقوا القلعة... وأقاموا عليها المجانيق... ثم تَسلموها بالأمان في منتصف جمادى الأولى من هذه السنة... ونهبوا جميع ما فيها... وجَدّوا في خراب أسوار القلعة وإعدام ما فيها من الزردخانات والآلات... ثم توجهوا الى بعلبك ونازلوا قلعتها...

فرمان أمان لأهل دمشق؟!

قال ابن كثير:

ارسل هلاون قبل أن يرحل من حلب جيشا مع أمير من كبار دولته يقال له كُتْبُغَا نُوين...

فوردوا دمشق في أواخر صفر... فأخذوها سريعا من غير ممانعة...

وتلقاهم أكابرها بالرحب والسعة...

وقد كتب هلاون معهم فرمان أمان لأهل البلد...

فقرئ بالميدان الأخضر... ونودي في البلد بالأمان...

فأمن الناس... والقلعة ممتنعة!!!

وفي أعاليها المجانيق منصوبة... والحال شديدة...

فأحضرت التتار على عجل المجانيق... والخيول تجرها... وهم راكبون على الخيل... وأسلحتهم على الأبقار الكثيرة... فنصبوا المجانيق على القلعة...

فأجابهم متوليها في آخر ذلك النهار الى المصالحة...

ففتحوها وضربوا كل بدنة فيها... وأعالي بروجها... وذلك في المنتصف من جمادى الأولى من هذه السنة...

وقتلوا المتولي بها... ونقيبها!!!

مهازل وإذلال؟!

وسلموها الى أمير منهم يقال له: إيل سنان... وكان معظما لدين النصارى...

فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم... فعظمهم جدا...

وزار كنائسهم!!!

فصارت لهم دولة وصولة بسببه!!

وذهبت منهم طائفة إلى هلاون بهدايا وتحف!!!

وقدموا منه ومعهم فرمان أمان من جهته...

ودخلوا البلد من باب توما... ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس!!!

وهم ينادون بشعارهم... ويقولون: ظهر الدين الصحيح... دين المسيح!!!

ويذمون دين الاسلام وأهله!!!

ومعهم أواني فيها خمر لا يمرون مسجدا إلا رشّوا عنده خمرا!!!

وقماقم فيها خمر يرشون منها على وجوه الناس!!!

ولما وقع هذا في البلد...

اجتمع قضاة المسلمين والفقهاء... فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال الى متسلمها إيل سنان...

فأهينوا وطردوا... وقدّم كلام رؤوس النصارى عليهم!!!

المعركة العظمى...

التي حوّلت مجرى التاريخ...

عَيْن جالوت...؟!

المعارك التاريخية كثيرة...

إلا أن القليل منها... هو الذي غيَّر مجرى التاريخ...

ومن ذلك القليل... كانت معركة عين جالوت...

حيث تلألأ بطل اسمه...

السلطان الملك المظفَّر سيف الدين قُطُزْ...

فقضى على جيش التتار قضاء تاما...

ولقَّن هؤلاء المجرمين درسا قاسيا...

أنَّ الجبروت الغاشم اذا انتفض في وجهه رجال يريدون وجه الله...

تضعضع وانكشف أمره...

وتهاوى سريعا... كما تتهاوى الفراش في النار...

ذلكم بأن الحقَّ أقوى دائما من الباطل...

فإذا وُجِد الرجال الذين يقاتلون دفاعا عن الحقّ... دمَّروا حتما اولئك الأوباش...

لقد طوى المغول ـ التتار ـ الأرض من أقصى الصين... الى أقصى اوروبا...

يقتلون... ويدمرون المدن والقرى...

والعالم كله قد استسلم وركع أمام جبروتهم...
فإذا ظهر فجأة مَن يقف في وجه هذا الطوفان الكاسح...
ويتحداه... ويقاتله...
ثم يقتل قواته الكاسحة عن آخرها...
ويُسْقِط قائد التتار... كُتْبُغَا نُوين... يتخبط في دمائه...
اذا وُجد ذلك الرجل المعجزة... فهو البطَل حقا... وهو العملاق حقا... وهو الأعجوبة حقا...
لقد كان ذلك الرجل... الذي انتزع الفريسة من فم الأسد...
هو البطل الأسطورة... سيف الدين قُطُز!!!

وت ت عين جالوت؟!

ولما استـولـت التتـار على البلاد الشـاميـة... وضـايقــوا الممالــك الإسلامية...
ولم يبق مـن يـدفعهـم عـن العبـاد والبلاد... إلا عسكـر الديـار المصرية...
اتفق السلطان الملك المظفَّر قطز... مع الأمراء والأكابر على تجهيز العساكر...
وصمموا على لقاء العدو المخذول...
وجمعوا الفرسان والرجالة من العربان وغيرهم...
وخرجوا من القاهرة بأعظم أُبَّهة!!!

هولاكو يهدد ويطلب من قُطُز التسليم؟!

[رسالة هولاكو إلى سلطان مصر قُطُز بعد احتلاله دمشق وتهيئته للزحف بجيشه على مصر] .

« من ملك الملوك... شرقا وغربا ... القان الأعظم...

« باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء .....

« يعلم الملك المظفَّر قُطُز... الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا... إلى هذا الإقليم... يتنعمون بأنعامه... ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك...

« يعلم الملك المظفَّر قُطُز... وسائر أمراء دولته... وأهل مملكته بالديار المصرية... وما حولها من الأعمال...

« أنا نحن جند الله في أرضه...

« خلقنا من سخطه...

« وسلَّطنا على من حل به غضبه...

« فلكم بجميع البلاد معتبر... وعن عزمنا مزدجر...

« فاتعظوا بغيركم...

« وأسلموا إلينا أمركم...

« قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ...

« فنحن ما نرحم من بكى...

« ولا نرق لمن شكى...

« وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد... وطهرنا الأرض من الفساد... وقتلنا معظم العباد...

« فعليكم بالهرب... وعلينا الطلب...

« فأي أرض تأويكم... وأي طريق تنجيكم؟...

« وأي بلاد تنجيكم؟...

« فما من سيوفنا خلاص... ولا من مهابتنا مناص...

« فخيولنا سوابق...

« وسهامنا خوارق...

« وسيوفنا صواعق...

« وقلوبنا كالجبال...

« وعددنا كالرمال...

« فالحصون لدينا لا تمنع...

« والعساكر لقتالنا لا تنفع...

« ودعاؤكم علينا لا يُسمع...

« فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عند كلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان. فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم بشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد عذر من أنذر. وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة. وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة. فكثيركم عندنا قليل وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الإهانة ما لملوككم عندنا سبيل. فلا تطيلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًا، ولا كافيًا ولا حرازًا، وتدهون منا بأعظم داهية وتصبح بلادكم منكم خالية. فقد أنصفناكم إذ راسلناكم وأيقظناكم إذ حذرناكم. فما بقي لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم وعلى من

أطاع الهدى وخشي عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصرها هُلاون[1] قد أتى بحد سيوف تنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ويلحق أطفالًا لهم بالأكابر

[كتاب السلوك للمقريزي ج ١، ق ٢ ٤٢٧ - ٤٢٩]

محاورة السلطان قُطُز مع أمرائه وأرباب دولته لما وصلته رسالة هولاكو السابقة

لما وصلت الرسالة السابقة التي أرسلها هولاكو إلى السلطان قطز صحبة جماعة من الرسل جمع السلطان أمراءه وأركان دولته واستشارهم في الأمر فقال:

لقد توجه هولاكو خان من توران إلى إيران بجيش جرار، ولم يكن لأي مخلوق من الخلفاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته واستولى على جميع البلاد. ثم جاء إلى دمشق، ولو لم يبلغه نعي أخيه لألحق مصر بالبلاد الأخرى. ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي كيتوبوقا نويان الذي هو كالأسد الهصور والتنين القوي في الكمين. وإذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته، ويجب تدبر الأمر قبل فوات الفرصة.

فقال ناصر الدين قيمري:

إن هولاكوخان، فضلًا عن انه حفيد جنكيزخان وابن تولوي وأخو منككوقاآن، فإن شهرته وهيبته في غنى عن الشرح والبيان. وإن البلاد الممتدة

(١) هُلاوُن صيغة لاسم هولاكو، وقد وردت كثيرًا في كتب المؤرخين المعاصرين.

من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الآن، وقد اختص بالتأييد السماوي. فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس في ذلك عيب ولا عار. ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل. إنه ليس بالإنسان الذي يطمأن إليه، فهو لا يتورع عن احتزاز الرؤوس وهو لا يفي بعهده وميثاقه، فإنه قتل فجأة خورشاه والخليفة وحسام الدين عكة وصاحب إربل بعد أن أعطاهم العهد والميثاق، فإذا ما سرنا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل.

فقال قُطُز:

والحالة هذه فإن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع، وأصبحت البلاد من بغداد حتى الروم خرابًا يبابًا، وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل. فخليت من الأزواج والأبقار والبذور. فلو أننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خرابًا تامًا كغيرها من البلاد. وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحدًا من ثلاثة، الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن. أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مفرًا إلا المغرب وبيننا وبينه مسافات بعيدة.

فأجاب ناصر الدين قيمري:

وليس هناك مصلحة أيضًا إذ أنه لا يوثق بعهودهم.

فقال بقية الأمراء:

ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم فمر بما يقتضيه رأيك:

عندئذٍ قال قَطَز:

إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعًا إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق.

فاتفق الأمراء بعد ذلك. ثم اختلى قطز بالبندقدار[1] الذي كان أميراً للأمراء وشاوره في الأمر: إنني أرى أن نقتل الرسل ونقصد كيتوبوقا متضامنين فإن انتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في كلتا الحالتين معذورين.

فاستصوب قطز هذا الكلام وأمر بصلب رسل المغول في الليل.

[جامع التواريخ للهمذاني ج ٢، ق ١ ٣١١ - ٣١٣]

السلطان يقاتل بنفسه؟!

وكانت التتار في أرض البقاع...

فساروا صحبة مقدّمهم كتْبُغَانُوين..

فكان الملتقى بمنزلة عين جالوت في مرج بني عامر...

فلما التقى الجمعان...

حمل السلطان الملك المظفّر بنفسه!!!

وألقى خوذته عن رأسه!!!

وحملت الأمراء البحرية...

والعساكر المصرية... حملة صادقة...

فكسروهم أشد كسرة...

وقتل كُتْبُغَانُوين في المعركة!!!

وقتل بعده السَعيد بن الملك العزيز لأنه وافقه في هذه الحركة... وكان قد أخذ من هلاون فرمانا باستمراره على ما بيده من البلاد وهي

(١) المقصود بالبندقدار القائد بيبرس الذي أصبح بعد فترة سلطانًا لسورية ومصر باسم الملك الظاهر بيبرس.

الضبيبة وأعمالها وزيادة عليها ... وحضر مع كُتْبُغَانُوِين الوقعة...

فلما انكسر وأحضر إلى المظفَّر مستأمنا فقال له: كان هذا يكون لو حضرت قبل الوقعة... وأما الآن فلا...

وأمر به فقُتِل صبرا!!!

ابادة التتار؟!

وقتل أكثر التتار...

وجهزت خيل الطلب وراء من همَّ بالفرار...

وكان المقدم عليها الأمير ركن الدين بيبرس البَندقداري...

فتبع المنهزمين... وأتى عليهم قتلا وأسرا...

حتى استأصل شأفتهم...

فلم يفلت أحد منهم!!!

ابادة مَدَد التتار؟!

وصادفت طائفة من التتار جاءت من عند هلاون مَدَدا لكُتْبُغَا...

فلما وصلت هذه النجدة إلى بلد حمص...

صادفت التتار منهزمين على أسوأ الأحوال... والخيول تجول في طلبهم كل مجال...

« فلم تمكنهم[1] الهزيمة... فكانوا للسيوف غنيمة!!!

(١) المقصود أنه لم يمكنهم الهرب والفرار.

وكانت عدتهم الفين... فلم يبق لهم أثر ولا عين!!!

العفو عن الملك الأشرف؟!

وكان أيضا في صحبة التتار... الملك الأشرف موسى... صاحب حمص...

ففارقهم وطلب الأمان من السلطان الملك المظفّر...

فآمنه ووصل إليه فأكرمه... وأقره على ما بيده وهي حمص ومضافاتها!!!

مملوك يحاول قتل السلطان؟!

ومما اتفق في هذه الوقعة...

أن الصبي الذي استبقاه السلطان الملك المظفّر من التتار المرسلين إليه من عند كتبغا... وأضافه إلى المماليك السلطانية...

كان راكبًا وراءه حال اللقاء...

فلما التحم القتال... كيز سهما وفوقه نحو المظفّر...

فبصر به بعض من كان حوله...

فأمسك وقتل مكانه!!!

فكان كما قيل:

واحذر شرارة من أطفأت جمرته فالثأر غضّ ولو بُقّي إلى حين

وفي تاريخ النويري:

ضرب ذلك الشاب... السلطان بسهم فلم يخطئ فرسه فوقعت...
وبقي السلطان على الأرض...
فنزل فخر الدين ماماي عن فرسه وقدمه إلى السلطان فركب...
ثم حضرت الجنائب[1] السلطانية فركب فخر الدين منها...
ثم لما فرغ السلطان من كسر التتار...
وانقضى أمر المصاف...
أحسن إلى الملك المنصور صاحب حماة... وأقره على حماة وبارين وأعاد عليه المعرة...
وأخذ السلمية منه وأعطاها للأمير شرف الدين عيسى بن مهني بن مانع أمير العرب!!!

البطل المظفَّر يدخل دمشق؟!

ثم لما جرى ما ذكرنا... أتم السير السلطان الملك المظفر بالعساكر...
وصحبته الملك المنصور صاحب حماة... حتى دخل دمشق...
وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر...
فإن القلوب كانت قد يئست من النصر على التتار...
لاستيلائهم على معظم بلاد المسلمين...
ولأنهم ما قصدوا إقليمًا إلا فتحوه... ولا عسكرا إلا هزموه...
وفي يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتار... فشُنقوا...

(١) الجنائب: جمع جنب: وهي الخيول التي كانت تسير وراء السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها.

وكان في جملتهم حسين الكردي... طبردار[1] الملك الناصر يوسف وهو الذي أوقع الملك الناصر في أيدي التتار!!!

رسالة قائد التتار الى هولاكو لمّا هُزِم جيشه؟!

حلت الهزيمة على جيش المغول... أمام الجيش الاسلامي في عين جالوت... وحرض بعض أتباع كيتوبوقا (كُتُبْغَانُوين) الذي كان قائد الجيش المغولي... على الهرب لانقاذ حياته فرفض وقال:

« لا مفر من الموت هنا... فالموت مع العزة والشرف خير من الهرب مع الذل والهوان...

« وسيصل رجل واحد، صغيرا أو كبيرا.... من أفراد هذا الجيش الى حضرة الملك ويعرض عليه كلامي قائلا:

« إن كيتوبوقا لم يشأ أن يتراجع وقد كلله الخجل... فضحى بحياته الغالية في سبيل واجبه...

« ينبغي ألا يشق على الخاطر المبارك نبأ فناء جيش المغول...

« وليتصور الملك أن نساء جنوده لم يحملن عامًا واحدًا...

« وأن جياد قطعانه لم تلد المهور...

« فليدم إقبال الملك...

« وما دامت الشريفة آمنة وسالمة...

« فانها تكون عوضا لكل مفقود...

« إذ أن وجودنا وعدمنا نحن العبيد والأتباع أمر سهل يسير»!!!

[جامع التواريخ للهمذاني ج ٢، ق ١ - ٣١٤]

(١) الطبردار هو الذي يحمل طبر السلطان... أي فأسه... عند ركوبه في المواكب.

رسالة السلطان . . .

الملك المظفَّر قُطُز . . .

الى ملك اليمن . . .

يبشره بانتصاره العظيم . . .

على المغول . . .؟!

هذه رسالة الملك المظفَّر قُطُز...

الى صاحب اليمن... الملك المنصور...

يبشره بانتصاره العظيم على المغول... في معركة عين جالوت:

«أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي المنصوري...

وأعلى مناره... وضاعف اقتداره...

نعلمه أنه لما كان النصف من شهر رجب الفرد... فتح الله تعالى بنصر المسلمين على أعداء الدين...

من كل مَنْ لولا تسعُّرُ بأسه لاخضر جودًا في يديه الأسمر

فصدرت هذه التهنئة إليه راوية للصدق عن اليوم المحجل الأغر:

يوم غدا بالنقع فيه يهتدي من ضل فيه بأنجم المران

ففي أذن الدهر من وقعه صمم وفي عرنين البدر من نقعه شَمَم

ترفعه رواة الأسل عن الأسنة ويسنده مجر العوالي عن مجر الأعنة

أما النصر الذي شهد الضربُ بصحته، والطعن بنصيحته، فهو أن التتر - خذلهم الله تعالى - استطالوا على الأيام، وخاضوا بلاد الشام، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام.

سعى الطمعُ المردي بهم بحتوفهم ومن يُمْسِكَنْ ذيل المطامع يعطب

فاعتاضوا عن الصحة بالمرض، وعن الجوهر بالعرض، وقد أرخت الغفلة زمامهم، وقاد الشيطان خطامهم، وعاد كيدهم في نحورهم، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا. وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويًا عزيزًا.

راموا الأمور فمذ لاحت عواقبها بضد ما أملوا في الورد والصدر
ظلوا حيارى وكأس الموت دائرة عليهم شرعًا في الورد والصدر
وأضعف الرعب أيديهم فطعنهم بالسمهرية مثل الوخز بالإبر

لا جرم أنهم لسن الندم قارعون، وعلى مقابلة إحساننا بالإساءة نادمون.

تدرعوا بدروع البغي سابغة والمرء يحصد من دنياه ما زرعا

فأقلعت بهم طرائق الضلال، وسارت مراكب أمانيهم في بحار الآمال، فتلك آمال خائبة ومراكب للظنون عاطبة، وأقلعوا في البحر بمراكبه، والبر بمواكبه، وساروا وللشيطان فيهم وساوس، تغرهم أمنية الظنون الحواس، فما وسوس الشيطان كفرًا إلا وأحرقه الإيمان بكوكب...[1] هذا وعساكر المسلمين مستوطنة في مواطنها، جاذية عقبانها في وكور ظباها، رابضة آسادها في غيل إقناها، ما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة، ولا تثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة لها ناسخة، ولا عُقِدَت برجةِ ناقوس إلا وحلها الأذان. ولا نطق كاتب إلا وأخرسه القرآن. ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل، وصار اليوم كأمس، ونسخت آية الليل بسورة الشمس، واكتحلت الأعين بمرود السبات، وخاف كل من المسلمين إصدار البيات.

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى الأعادي فهو يقظان نائم

---

(١) بياض بالأصل.

إلى أن تراءت العين بالعين، واضطرم نار الحرب بين الطرفين، فلم تر إلا ضربًا يجعل البرق نضوًا، ويترك في بطن كل من المشركين شلوًا، حتى صارت المفاوز دلاصًا، ومراتع الظبا للظُبا عراصًا، واقتنصت أساد المسلمين المشركين اقتناصا. ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مناصا. فلا روضة إلا درع ولا جدول إلا حسام، ولا غمامة إلا نقع، ولا وبل إلا سهام، ولا مدام إلا دماء، ولا نغم إلا صهيل، ولا معربد إلا قاتل، ولا سكران إلا قتيل حتى صار كافور الدين شقيقًا، وتلون الحصباء من الدماء عقيقًا، وضرب النقع في السماء طريقًا، وازدحمت الجنائب في الفضاء فجعلته مضيقًا. وقتل من المشركين كل جبار عنيد، ذلك بما قدمت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد.

[صبح الأعشى للقلقشندي ج ٧ ٣٦٠ - ٣٦٢]

وصف المعركة الخالدة...
كما ورد في كتاب:
«النجوم الزاهرة في أخبار
ملوك مصر والقاهرة»...؟!

التتار يقتربون من مصر ؟!

« وأما التتار... فإنه بلغت غارتهم الى غزة... وبلد الخليل... عليه السلام...

فقتلوا الرجال... وسَبَوا النساء والصبيان... واستاقوا من الأسرى والأبقار والأغنام والمواشي شيئا كثيرا...

قُطُزْ يتهيأ للحرب؟!

كل ذلك والسلطان الملك المظفَّر قُطُز... سلطان مصر... يتهيأ للقاء التّتار...

فلما اجتمعت العساكر الإسلامية... بالديار المصرية...

ألقى الله تعالى في قلب الملك المظفَّر قُطُز... الخروج لقتالهم... بعد أن كانت القلوب قد أيستْ من النصرة على التتار...

وأجمعوا على حفظ مصر لا غير... لكثرة عَدَدهم واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين...

وأنهم ما قصَدوا إقليما إلا فتحوه... ولا عسكرًا إلا هزموه...

ولم يبق خارجًا عن حكمهم في الجانب الشرقي إلا الديار المصرية والحجاز واليمن...

وهرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر الى الغَرْب...

وهرب جماعة من الناس الى اليمن والحجاز...

والباقون بَقُوا في وجل عظيم... وخوف شديد...

يتوقعون دخول العدو وأخذ البلاد!!!

عزيمة البطل الخارقة؟!

وصمَّم الملك المظفَّر - رحمه الله - على لقاء التَّتار!!!

وخرج من مصر في الجحافل الشامية والمصرية... في شهر رمضان...

وصحبته الملك المنصور صاحب حماة...

وكان الأَتَابَك فارس الدين أقْطاي المستعرب... الأمور كلها مفوّضة إليه!!!

وسيّر الملك المظفر قُطُزْ الى صاحب حَمَاة... وهو بالصالحية يقول له: لا تحتفل في مَدّ سِمَاطٍ... بل كل واحد من أصحابك يُفْطِر على قطعة لحم في صَوْلَقِه (مخلاة من جلد يضعها الشخص في حزامه من الجهة اليمنى)...

وسافر الملك المظفّر بالعساكر من الصالحيّة... ووصل غزة والقلوب وَجِلَة!!!

قائد التَّتار يندفع الى المعركة؟!

وأما كُتْبُغَانُوِين مقدّم التَّتار على عسكر هولاكو... لمّا بلغه خروج الملك المظفَّر قُطُزْ... كان بالبقاع...

فاستدعى الملك الأشرف (موسى بن المنصور صاحب حِمْص) وقاضيَ القضاة محيي الدين واستشارهم في ذلك...

فمنهم من أشار بعدم الملتقَى... والاندفاع بين يدي الملك المظفر... الى حيث يجيئُه مَـدَدٌ مـن هـولاكـو... ليقـوى على ملتقـى العسكـر المصريّ...

ومنهم من أشار بغير ذلك...

وتفرقت الآراء!!!

فاقتفى رأي كُتْبُغَانُوِين الملتقى...

وتوجَّه من فوره لما أراد الله تعالى... من إعزاز الإسلام وأهله... وإذلال الشرك وحزبه...

بعد أن جمع كُتْبُغَانُوِين من في الشام من التتار وغيرهم... وقصد محاربة المسلمين...

وصحبته الملك السعيد حسن ابن الملك العزيز عثمان!!!

البطل ينزل بعين جالوت؟!

ثم رحل الملك المظفَّر قُطُزْ بعساكره من غزّة...

ونزل الغَوْرَ... بعَيْن جالوت (بلدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين)...

وفيه جموع التتار ...
في يوم الجمعة ... خامس وعشرين شهر رمضان ...
ووقع المصافُّ بينهم في اليوم المذكور!!!

البطل يباشر القتال بنفسه؟!

وتقاتلا قتالا شديدًا لم يُرَ مِثْلُه!!!
حتى قُتِل من الطائفتين جماعة كثيرة.
وانكسرت ميسرة المسلمين كسرة شنيعة.
فحمل الملك المظفَّر - رحمه الله - بنفسه في طائفة من عساكره...
وأردف الميسرة حتى تحايَوْا وتراجعوا ...
واقتحم الملك المظفَّر القتال وباشر ذلك بنفسه!!!
وأبلى في ذلك اليوم بلاءً حَسَنًا.

اللحظة الفاصلة؟!

وعظُم الحرب...
وثبت كلٌّ من الفريقين مع كثرة التتار ...
والمظفر مع ذلك يُشَجِّع أصحابه ... ويُحَسِّن اليهم الموت
وهو يَكُرُّ بهم كرَّة بعد كرَّة...
حتى نصرالله الاسلام وأعزَّه!!!
وانكسرت التتار!!!

وولوا الأدبار... على أقبح وجه بعد أن قتل معظم أعيانهم
وأصيب مقدّم العساكر التتارية... كُتْبُغَانُوِين...
فإنه أيضا لمّا عظم الخَطْب باشر القتال بنفسه...
فأخزاه الله تعالى...
وقُتِل شرّ قتلة!!!
وكان الذي حمل عليه وقتله الأمير جمال الدين آقوش الشّمْسي - رحمه الله تعالى - وَولّى التتار الأدبار لا يَلْوُون على شيء...

القضاء على فلول التتار؟!

واعتصم منهم طائفة بالتل المجاور لمكان الوقعة...
فأحدقت بهم العساكر وصابروهم على القتال حتى أفنوهم قتلًا... ونجا من نجا...

بطولة بيبرس؟!

وتبعهم الأمير ركن الدين بيبرس البُنْدقداريّ في جماعة من الشجعان إلى أطراف البلاد...
واستوفى أهل البلاد والضياع من التتار آثارهم!!!
وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى إنه لم يسلم منهم إلا القليل جدا»!!!

ماذا قال...

صاحب كتاب...

«وإسلاماه»[1] ...

في وصف المعركة...؟!

(١) هو «علي أحمد باكثير».

وكان السلطان قد أمر الأمير بيبرس ان يتقدم في جمع من العسكر ليكون طليعة يعرف له أخبار التتار... فسار بيبرس والجمع الذي معه سيرا حثيثا حتى وصل غزة وبها طلائع التتار. فناوشهم القتال فانهزموا اذ ظنوا أن وراءه جيشا عظيما وتركوا له غزة فدخلها ونزل فيها بجمعه حتى وافاه السلطان بالعساكر فأقام فيها يوما يستجم ويدبر الخطط.

ولاح للسلطان أن عكاء بيد الفرنج وأنهم قد يغدرون بالمسلمين عندما يلقون التتار فيطعنونهم من الخلف. فرأى أن يقطع عليهم هذا السبيل فتوجه على عكاء من طريق الساحل بعد ما بعث اليها رسلا من قبله. حتى اذا شارفها وعلم أهلها بدنوه منهم خرجوا اليه بالألطاف والهدايا، فقال لهم السلطان: «انه لا ينوي بهم السوء ولم يخرج لقتالهم، وانما خرج لقتال التتار فعليهم أن يلزموا الحياد التام». فخافوا منه وألطفوا له القول وأعربوا له عن اخلاصهم وولائهم له، وعرضوا عليه أن يسيروا معه نجدة من عسكرهم، فشكرهم وقال لهم: «ان جيشه لا يحتاج الى معونة أحد». ثم استحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه. وأقسم لئن تبعه فارس منهم أو راجل يريد أذى المسلمين ليرجعن اليهم فيقاتلنهم قبل أن يلقى التتار.

وكان هؤلاء الفرنج قد كاتبوا التتار قبل ذلك يعلمونهم بأنهم معهم على

المسلمين، وأنهم على استعداد ليجيئوا المسلمين من خلفهم اذا تقدموا لقتالهم، ولكنهم لما رأوا انهزام طلائع التتار وجلاءهم عن غزة خشوا أن ينقض عليهم المسلمون فاتبعوا سبيل الوفاق معهم. ولم يكتف السلطان بوعدهم وأيمانهم حتى شرط عليهم أن يبقى في الحصون القائمة على منافذ عكاء حاميات من عسكره ليضمن بذلك بقاءهم على الحياد، فوافقوا على ذلك مكرهين.

ورحل السلطان عن عكاء حتى اذا عسكر بعيدا عنها، جمع الأمرا والقواد ومقدمي العساكر فوقف بينهم خطيبا على جواده، وجعل يحضهم على قتال العدو ويذكرهم بما حاق بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، ويخوفهم وقوع مثل ذلك لهم ولبلادهم. ثم حثهم على استنقاذ بلاد الشام من أيدي التتار ونصرة الاسلام والمسلمين، وحذرهم عقوبة الله وغضبه اذا هم قصروا في جهادهم. فضج السامعون بالبكاء، وتحالفوا على الصدق والاجتهاد في قتال التتار. وحينئذ دعا السلطان الأمير بيبرس وأمره أن يسير بكتيبة من العسكر لتكون طليعة له، فصدع بيبرس بأمر السلطان وسار بكتيبته حتى لقي طلائع التتار، فكتب الى السلطان يعلمه بذلك، وأخذ يناوشهم فتارة يقدم عليهم وتارة يحجم عنهم، يبغي بذلك مشاغلتهم وعدم الاشتباك معهم في معركة فاصلة. واستمر على ذلك حتى وافاه السلطان عند عين جالوت فنزل بعساكره في الغور. ولما رأى طلائع التتار قدوم الجيش المصري لزموا مواقعهم ينتظرون تكامل جوعهم المقبلة.

وكان الجيش طوال مسيره من الصالحية الى غزة ومن غزة الى عكا، ومن عكا إلى عين جالوت يردد هذا النشيد:

نمضي الى التتـــــار
بـــالأبيــض البتــــار
والأســــــل الحرار
نطلبهـــم بـــالثـــار

لله والمختـــــــار
وشرف الديـــــار
نطـــرحـــهم في النـــار وغضـــب الجبـــار
نمضي الى التتـــار
بـــالعسكـــر الجرار
كـالأسـد الضـــواري
نعصـــف بـــالفجـــار
كالريح... كالاعصـار
كـــالمائـــج المدار
نغـــرقهـــم في النـــار وغضـــب الجبـــار

وأمست ليلة الجمعة لخمس بقين من شهر رمضان، والسلطان مخيم بعسكره في الغور، ومن دونهم معسكر التتار تتوارد اليه جموعهم طوال الليل، وكلا الفريقين ينتظر النهار، ولا يشك أن غدا سيكون يوم الفصل. ولم يأو الملك المظفر الى فراشه ليلته هذه، بل قضاها في ترتيب العساكر وتعيينهم في مواقعهم، واصدار الأوامر الى قوادهم ومقدميهم، والتفكير في خطط الهجوم. ولما غلبه النعاس من شدة التعب نام على مقعده، ولم يضع جنبه على الأرض.

وكان في خلال ذلك يكثر من ذكر الله، وتلاوة ما يحفظ من آيات القرآن وسوره.

وكان هولاكو قد رحل من حلب يريد بلاده لأخبار وصلت اليه بوفاة أخيه منكوخان ملك التتار. وأناب عنه في قيادة عساكره قائده الكبير كتبغا وأمره بمواصلة الغزو الى مصر. ولكنه لما وصل الى بلاد فارس، بلغه مسير سلطان مصر بجيوشه العظيمة الجرارة، فأقام بها ينتظر ما تتمخض به الحوادث.

ولما طلع الصباح تراءى الجمعان فتهيب كلاهما لقاء الآخر، لأنه يعلم أن

المعركة التي هو خائضها ستقرر مصيره. وحبس كليهما عن التقدم للقاء الآخر حابس. أما التتار فلما يصل كتبغا قائدهم الكبير، فوقفوا ينتظرون قدومه. وأما المسلمون فقد انتظر بهم الملك وقت صلاة الجمعة ليباشروا قتال أعدائهم وخطباء المسلمين على المنابر يدعون لهم بالتأييد والنصر.

ووصل كتبغا قبل الزوال بساعة فما لبث أن رتب عساكره وساقها للقاء المسلمين. وكان الملك المظفر اذ ذاك قد عين عساكره في مواقعهم، فجعل الأمير ركن الدين بيبرس على ميسرته، والأمير بهادر المعزى على ميمنته، وكان هو على القلب وحوله جماعة من أبطاله ومماليكه، بينهم الصبي «التتري» الذي كان استبقاه من رسل التتار، واتخذه مملوكا له، ووكل به من علمه فرائض الدين، فكان يسير معه لا يكاد يفارقه. وكان الملك المظفر يحبه لذكائه وفطنته، ويقول له: أنت ملك التتار، فكان رجال المظفر يدعونه دائما ملك التتار، وكان الصبي يزهى بذلك فيضحكون له.

وما لبث العسكران أن تقاربا، فأخذت سهام التتار تمرق في صفوف المسلمين فتجرح وتقتل فيهم.

فلما اشتد ذلك على المسلمين أمر السلطان رجاله بالهجوم عليهم، فاندفعوا الى الأمام، حتى تصافحت الصفوف الأمامية من كلا الفريقين بالسيوف. واشتد القتال واستبسل الفريقان استبسالا عظيما، واستحر فيهما القتل، الا أن المسلمين كانوا لذلك الحين ظاهرين على أعدائهم.

وكان الملك المظفر في وسط القلب ينظر الى القتال بصدر منشرح؛ كأنه سره أن يرى أصحابه يهجمون على التتار بعد أن كانوا يخشون لقاءهم ويظنون أنهم قوم لا يغلبون لكثرة ما سمعوا من أخبار شجاعتهم وتوحشهم. وهو يدفع أبطاله ويحض رجاله على التقدم. وكان الصبي التتري واقفا على فرسه بين مماليك السلطان وقريبا منه، فاستأذنه الصبي أن يتقدم للقتال فابتسم له السلطان، وقال له: «تقدم يا ملك التتار!» فشق الصبي صفوف المسلمين

أمامه، ثم اندفع في صفوف التتار يضرب بسيفه يمينا وشمالا فيقتل أربعة منهم أو خمسة، ثم يخلص منهم عائدا الى صفوف المسلمين حتى يقف في موضعه الأول عن يسار السلطان فيحييه السلطان ويقول له: «مرحى يا ملك التتار؟» وقد تكرر هذا الفعل من الصبي، فصار المسلمون يوسعون له السبيل اذا ذهب منطلقا كالسهم. الى صفوف التتار، واذا كر راجعا اليهم، ويتعجبون من شجاعته وفروسيته، ويصيحون به (احمل يا ملك التتار! مرحى يا ملك التتار!).

ولكن الصبي كان في الحقيقة يهمس لقومه التتار كلما خاض صفوفهم، ويعلمهم بموقع السلطان في القلب ليتبعه فرسان منهم وهو ينهزم الى مركز السلطان، فيتيسر لهم قتله.

وكانت السلطانة جلنار قد جعلت همها حماية زوجها من الغيلة، فجعلت تلاحظه وهي على جوادها من تل مرتفع خلف السلطان، وتراقب من حوله. فوسوس لها خاطرها من جهة الصبي التتري، وعجبت كيف يخوض صفوف التتار ثم يخلص منها سالما، فظلت تراقب حركاته. وانها لكذلك، اذ حمل الصبي فقتل من قتل من التتار كعادته، ثم ارتد سريعا وخلفه خمسة فرسان من التتار اندفعوا كالسهم الى جهة السلطان. ففوجئ السلطان ودهش، وفوجئ من حوله من الرجال فاضطربوا، ولكن السلطان تلقاهم بسيفه فجندل ثلاثة منهم.

واذا بالمملوك التتري قد رمى السلطان بسهم من خلفه فأخطأه وأصاب الفرس فترجل السلطان وقصده الفارسان التتريان، فجعل يحيص عنهما، ثم قصد أحدهما فضرب قوائم فرسه فوقعت به، وكاد الفارس التتري الآخر يعلو السلطان بسيفه لو لم يبرز له فارس ملثم شغله عن ذلك، فاختلفا ضربتين بالسيف فخرا صريعين.

وصاح الفارس الملثم: «صن نفسك يا سلطان المسلمين! ها قد سبقتك الى

الجنة!»، وكان هذا الفارس قبل ذلك قد أطار رأس الصبي التتري.

وكان فرسان الحرس السلطاني قد ثاب اليهم رشدهم اذ ذاك، فاجتمعوا حول السلطان وقبضوا على الفارس الذي ضرب السلطان قوائم فرسه فقتلوه، وسدوا الثغرة الأمامية وتكاثفوا فيها دون السلطان فلم يدعوا أحدا يقترب منه. وتذكر السلطان صوت الفارس الملثم فارتاب في أمره فقصد اليه وكشف عن وجهه فاذا السلطانة جلنار وهي تجود بنفسها، فهاله الأمر وحملها وهو لا يعقل ما يفعل. وبعث إلى بيبرس وهو على الميسرة ليحل محله في القلب. وانفتل هو منطلقا الى المخيم فلقي أقطاي الأتابك على الباب فقال له: «لا ترع، هذه سلطانتك جريحة، فعليَّ بالطبيب والجاريتين». فذهب أقطاي ليحضرهم، وأضجعها السلطان على فراشه وجعل يقبل جبينها والدموع تنهمر من عينيه وهو يقول لها: «وازوجاه! واحبيبتاه». فأحست به ورفعت طرفها اليه وقالت له بصوت ضعيف متقطع وهي تجود بروحها في السياق: «لا تقل واحبيبتاه... قل واإسلاماه!». وما لبثت أن لفظت الروح بين يديه حين حضرت الجاريتان الحبشيتان مرتاعتين وخلفهما الطبيب، فطبع السلطان على جبينها القبلة الأخيرة، ومسح دموعه ونهض تاركا زوجته الشهيدة للطبيب والجاريتين يتولون تجهيزها، وخرج من المخيم فامتطى جوادا طار به الى ساحة القتال.

وكان قد شاع في عسكر المسلمين خبر مصرع السلطانة جلنار، وانتشر فيهم كالنار في الهشيم، وخالطهم من ذلك أسف ووجوم. وشاع فيهم أيضا أن السلطان احتملها الى المخيم وترك مكانه للأمير بيبرس. فلما رأوه عاد الى محله صاحوا جميعا: «الله أكبر». وتمثلت لهم بطولة السلطانة الصريعة، فشعروا بهوان أنفسهم عليهم، وحملوا واستبسلوا.

ولما رأى التتار ذلك - وكانوا قد فرحوا بغياب السلطان، وظن كثير منهم أنه قتل - حملوا أيضا واستماتوا في الهجوم. فاضطربت ميمنة المسلمين التي

عليها الأمير بهادر، حتى صار صف المسلمين خطا مائلا مقدمه الميسرة عليها بيبرس، ومؤخره الميمنة التي انكشفت حتى تعرض القلب لهجات التتار الحامية، وقد أدركوا أن فيه السلطان فاندفعوا لاختراقه، وضغطوا عليه حتى تقهقر قليلا، فكاد يوازي الميمنة المنكشفة، وصار الصف بذلك أشبه بضلعين بزاوية منفرجة.

وعند ذلك تقدم السلطان قليلا الى الأمام فكشف عنه خوذته وألقى بها الى الأرض وصرخ بأعلى صوته ثلاثا «وا اسلاماه!» وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، وتردد صوته هذا في أرجاء الغور فسمعه معظم العسكر وردده معه، وحملوا حملة عنيفة انتعشت بها الميمنة. فتقدمت ببطء شديد من كثافة جموع التتار الذين حاولوا منها أن يطوقوا المسلمين. وبصر السلطان بكتبغا قائد التتار وقد حمي واستبسل وهو يضرب بسيفين، وكلما عقر جواده استبدل به جوادا آخر وكأنما كان يترقب الفرصة ليشق لبعض مقدمي رجاله منفرجا يصلون به الى السلطان.

وكان الأمير بيبرس اذ ذاك يحض أصحابه على القتال، ولا يدع لهم مجالا للتقهقر مهما اشتد بهم الضغط، فكأنما كانوا مقيدين بسلسلة طرفاها في يده. فثبتوا ثبات الرواسي، وكثر القتل فيهم وفي أعدائهم، حتى انهم ليطأون بحوافر خيولهم على جثث قتلاهم وصرعاهم. وكان يزج بنفسه في مقدم الصف فيجندل ما يجندل من أبطال العدو ثم يتراجع ويغوص بين أصحابه ويطوقهم من الخلف يحرضهم ويدفعهم الى الأمام، وما أسرع ما يمرق من خلال صفوفهم حتى يبرز الى المقدمة من ناحية أخرى وهكذا دواليك.

وكان في كل ذلك حذرا كأنما ينظر بألف عين. لا تفوته أقل حركة يقوم بها العدو، ولا أي تضعضع يبدو من قبل أصحابه. وكان مع ذلك موكل الطرف بالشجعان المعلمين من رجال العدو يتخير أشدهم على المسلمين فيفجأه بضربة لا تمهله فربما قده وقد جواده معه! وربما أطار رأسه فوثب

الجواد بجسم لا رأس له! وكثيرا ما وكل ذلك الى أحد أبطال رجاله فيقول له: «اقتل هذا الفارس وخلاك ذم!».

وكان من جراء شجاعة بيبرس وصرامته أن تحامى العدو الميسرة واستضعفوا الميمنة واندفعوا اليها حتى كان من أمرها ما كان. ولم يفت بيبرس أن العدو لما رأى قوة الميسرة أمر ميمنته بالتأخر قليلا والانتشار الى الغرب، وغرضه من ذلك أن تندفع ميسرة المسلمين الى الأمام فيقوموا بتطويقها، فأبطل عليهم تدبيرهم هذا اذ أمر رجاله بالانتشار الى الغرب أيضا وجعل تقدمه ببطء وحذر ريثما يرى ما يكون من ميمنة المسلمين والقلب، حتى اذا سمع صرخة الملك المظفر: «وا إسلاماه!» ورأى القلب يتقدم ويكر على صفوف الأعداء، وأدرك بفطنته أن السلطان يريد أن يطوق ميسرة التتار ويفصلها عن قلبهم اذ رآه يندفع بشطر من القلب فاخترق به صفوفهم - رأى الفرصة سانحة حينئذ ليقوم بحركة تطويق لميمنة التتار وقلبهم حتى يحصرهم بين ميسرته وبين الشطر الآخر من قلب المسلمين. فأمر رجاله بالتقهقر قليلا ليندفع العدو الى الأمام، وبالانتشار الى الغرب ثم التقدم الى الأمام في شكل هلالي ينتهي طرفه الشمالي بخط مائل الى الغرب، ليسد بذلك على العدو سبيل الالتفاف، ثم أمر رجال الشكل الهلالي أن يضغطوا شيئا فشيئا على العدو فأخذ مجال العدو يضيق من ذلك الحين.

وكان الملك المظفر يقاتل قتال المستميت حاسر الرأس، وقد احمر وجهه وانتفش شعره، فصار كأنه قطعة من اللهب يعلوها اعصار من الدخان الأسود. وكان الناظر اليه وهو يتقدم الصفوف ويضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال، فكلما اعوج له سيف التمس له سيفا آخر ورمى الأول في وجوه العدو، وكلما جندل بطلا من أبطال العدو صاح «الله أكبر» - يشفق عليه، ولا يشك أنه يتعرض للشهادة، وأنه عما قليل سيصاب. فعظم ذلك على خواص رجاله المخلصين لما رأوا من قلة حذره وتهاونه بنفسه الى حد التهور،

فعزم أبطالهم على أن يقوه بأنفسهم ما استطاعوا. فكان لا يتقدم خطوة الى الأمام الا تقدموا معه محيطين به في نصف دائرة، فاستحر القتل فيهم ولم يثنهم ذلك عن الاندفاع معه الى حد التهور اذ لا سبيل لهم مع ذلك الى الأخذ بجانب الحيطة والحذر.

وبصر السلطان بسهم يصوب نحوه فشد عنان جواده فوثب الجواد قائما على رجليه، فنشب السهم في صدر الجواد فتداعى ونزل عنه السلطان ومسح عرقه وهو يقول «في سبيل الله أيها الرفيق العزيز!» واستمر السلطان يقاتل راجلا وهو يصيح «إليَّ بجواد!» فأراد بعض أصحابه أن ينزل عن فرسه فأبى السلطان عليه ذلك وقال له: «اثبت مكانك ما كنت لأمنع المسلمين الانتفاع بك في هذا الوقت؟».

وبقي يقاتل راجلا حتى جيء له بفرس من الجنائب فامتطاها وتوغل بشطر كبير من جيشه فيما بين قلب العدو وميسرته. وبعث الى الأمير بهادر قائد الميمنة بما عزم من تطويق ميسرة العدو، فأمر الأمير بهادر رجاله بالانتشار الى الشرق في اتجاه شمالي.

وبقي الملك المظفر يحث أصحابه على توسيع المجال الذي اخترقه في صفوف العدو ليقيم بذلك برزخا قويا بين ميسرة العدو وسائر جيشه. فلم يزل البرزخ يتسع بما يندفع فيه من صفوف الجيش الاسلامي. وكان القتال أحمى ما يكون في جانبي البرزخ ولا سيما فيما يلي قلب العدو، حيث يرى كتبغا كبير التتار وقد استكلب في القتال وهو يقاتل بسيفيه، وخواص رجاله يقونه بأنفسهم من الضربات فيتصرعون أمامه وحواليه، والملك المظفر يتردد بين البرزخ وبين سائر القلب، حتى إذا ما عاينه كتبغا في البرزخ تقدم صوبه بأبطاله يريد اختراق البرزخ اليه. فأراد المظفر أن يلقاه فتقدمه أصحابه يبغون أن يصدوه عن ذلك اشفاقا عليه، والسلطان يقول لهم: «دعوني له ليس له قاتل غيري! أريد أن أقتله بيدي!».

فلما أعياهم ذلك انتدب أحد أبطالهم وهو الأمير جمال الدين آقوش الشمسي - وكان يقاتل الى جانب السلطان - فأبصر فرجة فاقتحمها الى قائد التتار الأكبر وصاح يخاطب السلطان: «يا خوند! أنا يدك لقد قتلت عدو الله بيدك!» وأهوى بسيفه على عاتق الطاغية فأبانها، وضربه كتبغا بيده الأخرى فصرعه من على فرسه، ولكن الأمير آقوش كان قد زج حينئذ برمحه في عنق الطاغية، فلما هوى من فرسه هوى الطاغية معه ورمح آقوش ناشب في حلقه وآقوش قابض على الرمح بيديه. وكبر الأمير آقوش - وسيوف العدو تتعاوره من كل جانب - فكبر السلطان وكبر من حوله معه، فعرف المسلمون أن كتبغا قد هلك، فكبروا جميعا بصوت واحد ألقى الرعب في قلوب التتار، فازداد هلعهم واختلت صفوفهم وأخذوا يتقهقرون.

فأمر السلطان جنود البرزخ وصفوف الميمنة أن يكملوا تطويق ميسرة العدو، واندفع باقي القلب الى البرزخ ليساعد ميسرة المسلمين التي عليها الأمير بيبرس على تطويق من لم يتمكن من الفرار من قلب العدو وميمنته، فانحصر معظم جيش العدو في هاتين الدائرتين، وحيل بينهم وبين الفرار، فأوقع بهم المسلمون وأفنوهم ضربا بالسيوف وطعنا بالرماح حتى امتلأ الغور بجثثهم وأشلائهم. ولم يسلم منهم الا القليل من ساقتهم الذين تمكنوا من الفرار. واعتصم منهم جماعة بالتل المجاور لمكان الوقعة وأخذوا يمطرون المسلمين بوابل من سهامهم. وأحدق بهم المسلمون وصابروهم في القتال. وحملوا عليهم مصعدين حتى سحقوهم سحقا بعد أن كثر قتلى المسلمين دون هذا التل، لما لقوه من سهام التتار التي تتساقط عليهم كالمطر ولا تكاد تخطئ أهدافها.

وانتهت المعركة وقد تهللت وجوه المسلمين فرحا واستبشارا بما أنعم الله عليهم من هذا النصر الكبير، وبما غنموا من أموال التتار مما نهبوه وسلبوه من أغنى المدن والبلاد التي مروا بها، فكانت غنيمة عظيمة لم ير مثلها في حروب ذلك العهد.

وخر الملك المظفر ساجدا لربه، شاكرا لما اجتباه من أنعمه، وأطال السجود ثم رفع رأسه والدموع تتحادر على لحيته حتى سلم من صلاته، فامتطى صهوة جواده، وخطب في جيشه قائلا: «أيها المسلمون! ان لساني يعجز عن شكركم، والله وحده قادر على أن يجزيكم الجزاء الأوفى. لقد صدقتم الله الجهاد في سبيله، فنصر قليلكم على كثير عدوكم. قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُروا اللهَ يَنْصُرْكُم ويُثَبِّتْ أقدامَكُم﴾[1]. وقال عز وجل: ﴿كَم من فئةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فئةً كثيرةً باذنِ اللهِ، واللهُ مَعَ الصابرين﴾[2].

اياكم والزهو بما صنعتم، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوته وجلاله، انه ذو القوة المتين. وما يدريكم لعل دعوات اخوانكم المسلمين على المنابر في الساعة التي حملتم فيها على عدوكم من هذا اليوم العظيم، يوم الجمعة، وفي هذا الشهر العظيم، شهر رمضان، كانت أمضى على عدوكم من السيوف التي بها ضربتم، والرماح التي بها طعنتم، والقسي التي عنها رميتم. واعلموا أنكم لن تنتهوا من الجهاد وانما بدأتموه. وأن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الاسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ألا فترحموا على اخوانكم الذين علم الله ما في قلوبهم من الايمان والخير، فاختار لهم الشهادة والجنة، واختار لكم النصر والبقاء، لتعودوا للجهاد في سبيله، وما عند الله خير وأبقى.

(١) سورة محمد، آية ٧.
(٢) سورة البقرة، آية ٢٤٩.

السلطان المظفَّر قُطُز...
يتبوأ من الشام...
حيث يشاء...؟!

وفي هذه النصرة...

وقدوم الملك المظفر قطز إلى الشام... يقول بعض الشعراء:

هلـك الكفـر في الشـام جميعـا ... واستجد الإسلام بعد دحـوضـه

بـالملـك المظفّـر البطـل الأر ... وع سيف الإسلام عنـد نهوضـه

ملـك جـاءنـا بعـزم وحـزم ... فـاعتـززنـا بسمـره وبيضـه

أوجـب الله شكـر ذاك علينـا ... دائما مثـل واجبـات فـروضـه

بالشام بَدَّدهم ؟!

وقال شهاب الدين أبو شامة:

غلب التتارُ على البلاد فجاءهـم ... مـن مصر تـركـيّ يجود بنفسـه

بالشام بـددهـم وفـرق شملهـم ... ولكـل شيء آفـة مـن جنسـه

أحكام الملك المظفر في دمشق؟!

ولما استقر ركابه الشريف في دمشق...

جهَّز عسكرًا إلى حلب لحفظها...

ورتب علاء الدين بن صاحب الموصل... نائب السلطنة بحلب...

ورتَّب بدمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي الصالحي نائبا...

وأقر الملك المنصور ناصر الدين محمد صاحب حماة بها على حاله...

وحضر إليه الملك الأشرف صاحب حمص... فأقبل عليه وأقره بما بيده ولم يؤاخذه...

ورتب شمس الدين أقوش البرلي العـزيـزي... أميرا بـالسـواحـل وغزة...

ورتب معه جماعة من العزيزية...

وكان شمس الدين المذكور مع الملك الناصر... ولما هرب الناصر من قَطْيَة... سار شمس الدين مع العساكر الى مصر... فأحسن إليه الملك المظفر وولّاه الآن السواحل وغزة...

ونظر المظفَّر في أحوال البلاد... وحسم مواد الفساد... وجدد الإقطاعات بمناشيره!!!

ماذا فعل أهل دمشق عند ورود البشارة بكسر التتار؟!

قال أبو شامة:

جاءنا كتاب قُطُز من طبرية... بتاريخ الأحد... السابع والعشرين من رمضان من هذه السنة...

وهو أول كتاب ورد منه الى أهل دمشق... يخبرهم بهذه الكسرة الميمونة... وبوصوله اليهم بعدها...

قال: ومن العجائب أن التتار كسروا وهلكوا بأبناء جنسهم من الترك...

ودار الزمان دورته

قال: وقد كانت النصارى بدمشق قد شمخوا بسبب دولة التتار...

وتردد إيل سنان وغيره من كبارهم الى كنائسهم...

وذهب بعضهم الى هلاون... وجاء من عنده بفرمان لهم اعتنى بهم.. وبوصية في حقهم...

ودخلوا به البلد من باب توما... وصلبانهم مرتفعة... وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم... واتضاع دين الإسلام...

فركب المسلمون من ذلك هم عظيم!!!

فلما هرب التتار من دمشق ليلة الأحد السابع والعشرين من رمضان...

أصبح الناس إلى دور النصارى ينهبونها ويخربون ما استطاعوا منها...

وقتل منهم جماعة واختفى الباقون... وجرى عليهم أمر عظيم... اشتفى به بعض الاشتفاء صدور المسلمين!!!

اقول:

وهكذا انتصر البطل الخارق في عين جالوت...

ثم دخل بلاد الشام كلها...

واستقبلته استقبال الحبيب للحبيب!!!
فاقتصّ من الخونة . . .فريقا يقتل . . . ويعفو عن فريق!!!
وبذلك أصبح السلطان الملك المظفَّر قُطُز . . .
سلطانا على الديار المصرية . . . وسلطانا على الديار الشامية . . .
فتربع على ملك آل أيوب . . . في الشام ومصر !!!
وصارت اليه الكلمة العليا في شئونها!!!
يتبوأ من الأرض حيث يشاء !!!
ثم لما قرَّر السلطان الملك المظفَّر قُطُز . . . أمور الشام . . . سار من دمشق الى جهة الديار المصرية . . .
فماذا حدث وماذا كان؟!!

مقتل...

البطل...

بِسَيْف بيبرس...؟!!

ذِكر عَوْدِ الملك المُظفَّر إلى الديار المصرية ومَقْتَلِهِ؟!

لما قرر السلطان الملك المظفَّر قُطُز... أمور الشام...
سار من دمشق إلى جهة الديار المصرية...
وفي نفوس البحرية منه...
ومن أستاذه قبله...
من قتلها الفارس أقطاي...
واستبدادهما بالمُلك...
وإلجائهم إلى الهرب والهجاج... والتنقل في الفجاج...
إلى غير ذلك من أنواع الأهواء التي قاسُوها... والمشقات التي لابَسُوها...
وإنما انحازوا اليه لما تعذَّر عليهم المقام بالشام...
وللتناصر على صيانة الإسلام...
لا لأنهم أخلصوا له الولاء!!!
أو رضوا له بالاستيلاء!!!
وقد يَنبتُ المرعى على دِمَنِ الثرى وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا

الاتفاق على المؤامرة؟!

فاتفق الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى...
والأمير سيف الدين أنص الأصفهاني...
والأمير سيف الدين بلبان الرشيدي...
والأمير بدر الدين بكتوت الجوكانداري...
والأمير سيف الدين بَيْدَغَان...
ومن معهم على قتله!!!

هكذا وقعت الجريمة؟!

وجعلوا يترصدون له وقتا لانتهاز فرصتهم... وإمضاء عزيمتهم!!
فلا يجدون سبيلا إلى ما همُّوا بفعله...
ولا تمكّنا من الوثوب به وقتله!!!
إلى أن أفضى بهم السيرُ إلى منزلة القُصَيْر... بطرف الرمل... بينه وبين الصالحيَّة مرحلة... وقد سبق الدهليزُ إلى الصالحية...
وقالوا: متى فاتنا من هذه المنزلة وصل إلى القلعة... وأعجزنا مَرَامُه... ولم نأمن انتقامَه!!!
واتفق أنه انفرد عن المواكب لصيد الأرانب...
ساق خلف أرنب عرض له... وهم يَرْمقونه!!!
فلما رأوه قد بَعُد عن الأطلاب... قالوا: الآن ندرك الطلاب...
وساقوا في إثره ركضا!!!
وجاءوا يتلو بعضهم!!!

الأصبهاني يخدع السلطان؟!

فتقدَّم إليه أنص الأصبهاني... كأنه يشفع عنده في إصلاح حال الركن بيبرس البندقداري... لأنه أقام في الخدمة مُدَّة... ولم يعين له عدَّة...

وخرج إلى الغزاة برمحه... وبذل فيها غاية نصحه!!!

فأجابه المظفَّر إلى سُؤاله...

ووعده بإصلاح حاله!!!

فأهوى إلى يده كأنه يقبلها!!!

فأمسكها أنص وضبطها!!!

بيبرس يعاجله بالسيف؟!

فأيقن المظفَّر أنه قد ختل وخُدع!!!

وأن ذلك الأمر قد أبْرِم ووُضع!!!

وأراد أن يجذب سَيْفه... ليدفع عن نفسه...

فعاجله البندُقداري بالسيف!!!

وأخذته السيوف!!!

فخر صريعا يَمُجُّ دما ونجيعًا!!!

وذلك في سابع عشر... ذي القعدة من هذه السنة!!!

ويقال: لما أجاب المظفَّر إلى كلام أنص... أهوى لتقبيل يده... فقبض عليها...

وحمل عليه بيبرس البندقداري حينئذ... وضربه بالسيف...
واجتمعوا عليه... ورموه عن فرسه... ثم قتلوه بالنَشاب!!!

رواية أخرى؟!

أورد المقريزي رواية أخرى فذكر: «فلما فرغ من صيده... وعاد يريد الدهليز السلطاني... وطلب منه الأمير بيبرس إمرأة من سبي التتر... فأنعم بها عليه...

« فأخذ بيبرس يد السلطان ليقبلها...

« وكانت إشارة بينه وبين الأمراء...

« فبدره الأمير بدر الدين بكتوت بالسيف... وضرب به عاتقه...

« واختطفه الأمير أنص وألقاه عن فرسه...

ورماه الأمير بهادر المعزي بسهم أتى على روحه».

بيبرس هو القاتل؟!

ذكر ابن عبد الظاهر...

أن بيبرس هو الذي قتل قطز بمفرده فقال:

« وفعل السلطان الملك الظاهر ما فعله بنفسه...

« وبلغ غرضه بمفرده...

« وذلك بين العساكر العظيمة...

« والاحتراز الشديد!!!

« وما قدر أحد أن يتكلم!!!
« ولا جسر أن يمد يده إليه »!!!

مدة سلطنته؟!

قُتل يوم السبت السادس عشر من ذي القعدة...
بين الغُرابيّ والصالحيَّة...
ودفِن بالقُصَيْر...
وكان قبره يُزار...
فلما تمكن الظاهر بيبرس في المملكة... بعث الى قبره...
فغيَّبَهُ عن الناس... وكان لا يعرف بعد ذلك!!!
وكانت مدة مملكته... أربعة عشر شهرا... وثلاثة عشر يوما!!!

شخصية . . .

الملك المظفَّر . . .

قُطُز . . .؟!

أصله... ومبدأ أمره ونسَبه؟!

هو سيف الدين قُطُز... بن عبد الله التركيُّ.. أخص مماليك الملك المعزّ أيبك التركماني.. أحد مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب...

أنا محمود... بن ممدود؟!

وحكى ابن أبي الفوارس قال:

« كان هذا قُطُز... مملوكا لابن الزعيم.. رجل من دمشق...

فضربه يوما وشتمه...

فبكى بكاءً كثيرا... وامتنع من الأكل في ذلك اليوم!!!

فقال له الفراش: هذا البكاء كله من ضربة أو ضربتين؟!..

فقال: يا خارج... والله ما أبكي للضرب.. ولكن للعنته أبي وجدّي... وهما خير من أبيه وجدّه!!!

فقال له الفراش: ومَن أبوك وجدُّك... وما كانا إلا كافريْن؟!...

فقال: لا والله...

« بل أنا مسلم ... ابن مسلم ...
« إلى عشر جدود ...
« وأنا محمود ... بن ممدود ...
« بن أخت جلال الدين خوارزم شاه السلجوقي ...
« ولا بد أن أملك مصر ... وأكسر التتار » !!!

* * *

أقول: نقف ها هنا وقفة خطيرة... فقد كان هذا المملوك... ابن ملوك...

كان خاله جلال الدين خوارزم شاه السلجوقي... الذي كان يمتد ملكه من أواسط الهند الى نحو العراق... وحارب التتار حربا مريرة... انتهت بهزيمته وزوال مُلكه...

فهو مملوك... نعم... بحُكم الظروف القاسية...

ولكنه ابن ملوك...

فهو المملوك ابن الملوك...

ووضعه هذا يؤثر تأثيرا شديدا في تركيب شخصيته..

فبينما هو من أعرق الناس نسبا... اذا هو عبدٌ رقيق يُضرب ويُهان ويُستذل ويُعبث به... ويباع ويُشترى شأنه شأن الحيوان!!!.

هناك براكين ثائرة في أعماقه... ولكنه طفل صغير لا يملك أن يفعل شيئا!!!.

إن هذا الرجل ابن الزعيم الذي اشتراه من دمشق... لا يعرف له قيمة...

إلا أنه عبد يفعل به ما يشاء...

إنه يضربه ويشتمه... وربما ركله بقدمه... وسبَّ آباءه وأجداده!!!

فانطوى الطفل المهان على نفسه يبكي ويبكي!!!

إنه مقهور... مظلوم...

وأشد القهر قهر الرجال...

وقهر الملوك حين يحكم عليهم الزمان أن يُسترقوا ويتحولوا إلى مماليك أقل وزنا من الأنعام!!!

هذه البراكين التي تغلي في أعماق قُطُز... كان لها أكبر الأثر في تكوين شخصيته...

هؤلاء التتار المجرمون الأفاكون... الذين بدَّدوا مُلك خالي... وتسببوا في استرقاقي وإذلالي.. لا بد لي يوما من الانتقام منهم... ولكن كيف السبيل الى ذلك... وأنَّى لي الوصول الى هذا الحُلم البعيد؟!!

أنت تملك مصر... وتكسِر التَّتار؟!

وحكى تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي قال:

«لما ملك الملك المظفَّر قُطُز... قال لي حسام البركتخاني: والله لا يكسر التتار غيره!..

فقلت له: من أين لك هذا؟!..

فقال: إني وإياه مملوكين صبيَّين عند الهيجاوي..

وكان على قُطُز قمل كثير..

فكنت أسرح رأسه.. وآخذ له كل قملة بفلس.. أو بصَفعة..

فسرحت رأسه يوما وصفعته صفعًا كثيرا.. ثم تنهدت..

فقال: ما بالك؟

فقلت: أتمنى على الله إمرة خمسين فارسًا!!!

فقال ورأسه في حجري: طيب قلبك... أنا أعطيك إمرة خمسين فارسًا!!!

فضحكت وصفعته صفعةً قوية..

وقلت له: من أين لك هذا؟!..

قال: رأيت النبيّ.. ﷺ... وقال لي:

«أنت تملك مصر...

«وتكسر التتار»

فسكتّ... وكنت أعرف منه الصدق!!!

وما أشك في أنه يكسر التتار..

فلم تمض إلا مدة يسيرة حتى خرج وكسر التتار»!!

وقال القاضي تاج الدين:

«ثم رأيت حسام الدين البركتخاني المذكور بمصر بعد كسر التتار.. وهو أمير خمسين فارسًا»!!!

★ ★ ★

أقول... كون قُطُز كان مملوكا صغيرا... وكونه كان صبيًّا... وكونه يرى تلك الرؤيا... ويصدّقها ويوقن بها... ويتأكد تمام التأكد بناء عليها.. أنه سوف يملك مصر... وسوف يكسر التتار.. كل ذلك بناء على رؤيا رآها!!!

فإن ذلك يدل دلالة واضحة.. على ان ذلك الصبي كان مؤمنا شديد الإيمان بالله...

يعتقد تمام الاعتقاد أنَّ من رأى النبيّ... ﷺ... في المنام... فقد رآه... فإن الشيطان لا يتمثّل به...

وأنّ ما أخبره به سوف يقع حتما!!!

سوف يملك مصر... لأنه ﷺ قال له: أنت تملك مصر!!!

وأنه سوف يكسر التتار.. لأنه ﷺ قال له ذلك في الرؤيا!!!

يقينه بالرؤيا... ثم يقينه بحتمية تحقق ما جاء بها من مبشرات...

آية كبرى تؤكد أنّ هذا الصبي ليس مجرد صبيّ.. فما أكثر الصبيان!!

وإنما قد وقع عليه الاختيار الإلهي.. لما عُلِم فيه من استعداد.. ليملك مصر... لأنها أكبر قوة ضاربة في العالم الإسلامي.. ليكسر بجيشها التتار.. أكبر قوة ضاربة في العالم آنذاك!!

وإنك لتلمس الترتيب والتدبير... لذلك الطفل من بداية طفولته..

مُلْك خاله جَلال الديـن خوارزم شاه... يتحطم أمام عينيه...

ثم يتشرد هو كما تشردت بقايا الأسرة المالكة..

ويُباع بيعا بخسا.. عبدا مملوكا.. وهو الملك ابن الملوك!!!

ثم يرى تلك الرؤيا السعيدة...

كل ذلك لتتكون شخصيته من الحقد المقدَّس...

الحقد الحارق.. الذي اذا اشتعل أحرق كلَّ ما وقف في طريقه!!

إنه يغلي بالثأر!!

الثأر المقدس.. لا ليثأر لآبائه الذين ديست عزّتهم وذبّحوا تذبيحا... ويقف عند ذلك..

ولكن ليثأر لدينه الذي وضعه التتار في مأزق قاتل..

هؤلاء الكفرة الفجرة البرابرة... الذين دمَّروا مُلك السلاجقة أجداده..

ثم دمروا الخليفة ودار الخلافة وأهل بغداد..

ثم زحفوا على الشام فأسقطوه ونهبوه ودمَّروه..

وها هم يرسلون إليه.. تهديدا وقحا قبيحا..

إما الاستسلام... أيها السلطان الذي أصله من جنس المماليك.. وإما

الدمار والقتل والإبادة!!!

المطلوب في هذه الظروف المريرة العاصفة.. رجل شجاع شجاعة خارقة.. ثائر ثورة حارقة..

ليندفع الى التتار.. إمّا أبادهم.. وإمّا أبادوه!!

فكان هذا الرجل.. هو ذاك الصبيّ المملوك المشرد المهان!!

فالمقادير حين تصنع البطل... تصنعه من قلب الأحداث التي سوف يغيرها البطل..

فالبطل ابن عصره.. وابن ظروفه... وابن الأحداث التي يعمل فيها!!!

قُطُز يوقن بالرؤيا أنها حقّ؟!

قال ابن كثير:

«وقد حكى الشيخ قطب الدين اليونيني... عن الشيخ علاء الدين بن غانم.. عن المولى تاج الدين أحمد بن الأثير.. كاتب السر في أيام الملك الناصر صاحب دمشق.. قال:

«لما كنا مع السلطان الناصر بوطأة برزة.. كانت البريدية يخبرون بأن المظفَّر قُطُز قد تولى سلطنة الديار المصرية!..

فقلت ذلك للسلطان..

فقال: اذهب إلى فلان وفلان وأخبرهم بهذا..

فلما خرجت من عنده لقيني بعض الأجناد.. فقال لي: جاءكم الخبر من الديار المصرية بأن قُطُز تملك؟!..

قلت: ما عندي من هذا علم.. وما يدريك أنت هذا؟..

فقال: بلى والله... إنه سيلي المملكة... ويكسر التتار!!!

فقلت: من أين تعلم هذا؟!..

قال: كنتُ أخذته وهو صغير.. وعليه قمل كثير.. فكنت أفليّه وأهينه..

فقال لي: ويلك!... إش تريد أن أعطيك إذا تملكتُ الديار المصرية؟!..

فقلت: أنت مجنون؟!..

فقال: لا... والله لقد رأيت رسول الله... ﷺ... في المنام.. وقال لي:

«أنت تملك الديار المصرية... وتكسر التتار»..

وقول رسول الله عليه السلام حق لا شك فيه..

فقلت له حينئذ.. وكان صادقا: فأريد منك إمرة خمسين.

فقال: نعم.

قال ابن الأثير: فلما قال لي هذا قلت: هذه كتب المصريين بأنه تولى السلطنة.

فقال: والله ليكسرنَّ التتار..

فكان كما قال!!!

قال: ولما رجع الناصر يوسف إلى ناحية الديار المصرية... وأراد دخولهافلم يدخل ورجع عنها.. ودخلها أكثر الجيوش..

كان هذا الحاكي في جلة من دخلها..

فأمَّره المظفَّر قُطُز... إمرة خمسين فارسًا.. ووفَّى له بالوعد.. وهو الأمير كمال الدين البركختاني!...

قال ابن الأثير: فلقيني بالديار المصرية بعد أن تأمَّر... فذكرني بما كان أخبرني عن المظفَّر.. فذكرته.. ثم كانت وقعة التتار على إثر ذلك»!!!

* * *

ماذا نستخلص من تلك الأقاصيص؟!

نستخلص منها أن السلطان قُطُز كان على يقين مطلق من رؤياه التي رأى... وأنه سوف يملك مصر... وسوف يكسر التتار!!

ثم انظر الى قوله وهو صغير.. وهذا هو وجه العجب من الأمر..

(وقول رسول الله عليه السلام حق لا شك فيه)!!!

نحن اذًا أمام صبيّ من نوع نادر... صبي يرى رسول الله... ﷺ ... ويروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال له **(أنت تملك الديار المصرية... وتكسِرُ التتار)!!!**

نبآن خطيران غريبان... في منطق العقول مستحيلان!!!

هذا صبي مملوك.. في أقصى مراتب العجز والذُّل... فمن أين له أن يكون على مصر ملكا؟!!!

شيء مستحيل!!!

والنبأ الثاني... أغرب وأبعد من الأول تحققا!!!

التتار؟!... الذين اكتسحوا العالم كله.. وحطموا الامبراطوريات وأزالوا الخلافة والخليفة... وقتلوا الملايين من الرجال والنساء والولدان!!! التتار الجبابرة الأكاسرة الذين يزيلون المملكة من الممالك في نزهة..

هذا الصبي المملوك يكسرهم؟!!

شيء يدفع دفعا الى التكذيب ممن سمعه.. فلا عجب أن يقول له صاحبه: أنت مجنون؟!!

إلا أنّ المكنون في تلك الحكاية... الذي يدل على ضخامة إيمان هذا الصبي.. هو اصراره على أن ذلك حتما سيكون!!!

وأنه كائن لا محالة... لماذا؟... (وقول رسول الله عليه السلام حق لا شك فيه)!!!

ها هنا مفتاح من مفاتيح شخصية قُطُز الكبرى..

إنّه غلام.. ولكن أوتي تصديقا بالغيوب شديدا جدا!!!

إنَّه صبي.. ولكن آتاه الله إيمانا يعدل إيمان أُمَّة بأكملها!!!

وإنَّه شديد الايمان بقول رسول الله... ﷺ ... وكفى قوله (حق لا شك فيه)...

مثل هذه النماذج نادرة جدا في الصغار..

لأن الصغير لا يأبه بالغيبيات ولا يلتفت اليها..

فإن وجد صغير يؤمن بها بنسبة تلك المرتبة العليا.. كان هذا دليلا على أن ذلك الصغير تركيب نادر... أعدَّه الله لعمل نادر!!!

ظاهرتان عجيبتان... تتشابهان وتتطابقان؟!

تدري ما هما هاتان الظاهرتان العجيبتان؟!!

سوف يأخذك العَجَب... حين تسمع حكايتهما!!!

استمع:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشَّمْسَ وَالقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ★

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ★

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]!!!

(١) سورة يوسف، الآيات ٤، ٥، ٦.

ماذا في هذا ؟!

فيه الآتي:

١ ـ رأى يوسف وهو صغير رؤيا.. ورأى قُطُز وهو صغير رؤيا!!!

٢ ـ كان تأويل رؤيا يوسف أنه ملك الديار المصرية.. وكان تأويل رؤيا قُطُز أنه ملك الديار المصرية!!!

٣ ـ مَرَّ يوسف على آلام طويلة وانتهى الى أن كان بيده الأمر في الديار المصرية.. وكذلك قُطُز مرَّ على آلام ومتاعب حتى انتهى به الأمر الى السلطنة على الديار المصرية!!!

٤ ـ أعجب وأعجب... أن يوسف ابتلي صغيرا بالرِّقّ... ﴿وشَرَوْهُ بثمنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾[1]...

وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم!!!... وكذلك قُطُز ابتلي بالرِّقّ وبيعَ بثمن بَخْس!!!

٥ ـ الذي اشترى يوسف من مصر... أكرمه لما شاهد فيه من امتياز ﴿وقال الَّذي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامَرأَتِـهِ أَكْرِمِـي مَثْـوَاهُ...﴾[2]... وكذلك أكرم الذي اشترى قطز من مصر مثواه... فكان مقدّم المماليك عند المعزّ أيبك التركماني!!!

٦ ـ كانت المساحة الزمنية بين بيع يوسف رقيقا... ورفعه الى مُلك مصر... مساحة عريضة... أربعين عاما في قول... وكذلك كانت المسافة الزمنية بين بيع قطز صغيرا رقيقا... وتسلطنه على عرش مصر.. مسافة طويلة!!!

٧ ـ كان هدف المقادير من سلسلة آلام يوسف أن ينتهي الى ملك مصر... فيكون رحمة للناس جميعا... لأنه مرَّ على آلامهم.. وكذلك كان

(١) سورة يوسف، آية ٢٠.
(٢) سورة يوسف، آية ٢١.

الهدف من سلسلة آلام قَطَز أن ينتهي الى ملك مصر.. ليكسر التتار... ويقضي على شرورهم فيكون ذلك رحمة لجميع الناس!!!

فما معنى هذا؟!!

معناه عجيب... وحكمته أعجب وأغرب!!!

أنَّ سُنن الله لا تتبدل ولا تتحول!!!

وأن الحكمة الإلهية حين تختار أحدًا لأداء دور تاريخي... لانقاذ البشرية من آلام وشدائد..

تقتضي تربية ذلك الأحد تربية خاصة... ليخرج في النهاية بطلا بكل معاني البطولة التاريخية..

لأن الفرد الطبيعي النمطي لا يصلح أن يكون أداة تغيير مجتمع..

وإنما لا بد من مستوى رفيع جدا... ليشدّ الهابطين الى أعلى شدًّا!!!

ورُبَّ قائل يقول: كيف تعقد مقارنة بين نبيٍّ... ومَلِك... والنبوة شيء... والمُلك شيء دون ذلك؟!!

وأقول: ليست مقارنة.. وإنما تفكُّر في شئون الله...

وكيف أنَّ مقدمات الأشياء اذا تشابهت نتائجها.. تشابهت مقدماتها!!!

لقد رأى يوسف طفلًا رؤيا.. ورؤيا الأنبياء حَقّ!!!

ورأى قُطُز طفلا رؤيا.. ورؤيا الأطفال قد تكون أضغاث أحلام...

إلا أن رؤيا قطز الطفل... كانت حقا... لأن رسول الله... ﷺ ... قال له فيها (أنت تملك الديار المصرية... وتكسر التتار)... فانتقلت رؤيا الطفل من هنا من مرتبة الأضغاث الى مرتبة الحقّ..

وكان ما كان.. وتحققت رؤيا الطفل قُطُز بتمامها... ولكن بعد عشرات السنين...

كما تحققت رؤيا الطفل يوسف بتمامها ولكن بعد عشرات السنين...
﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرّوا لَهُ سُجّدًا...
﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا...﴾[1]!!!
هاتان هما الظاهرتان العجيبتان ... اللتان تتشابهان وتتطابقان!!!فتأمّل وتفكّر!!!

أنا الذي أكسِر التّتار... وآخذ بثأر خالي خوارزم شاه منهم؟!

وفي تاريخ النويري:
وحكى عز الدين بن أبي الهيجاء قال:
« حدثني بلقاف عن بدر الدين بكتوت الأتابكي قال:
كنت أنا وقُطُز وبيبرس البندقداريّ... خشداشيّة في حال الصبا...
فرأينا يوما منجما في بعض الطرقات بالديار المصرية فوقفنا عليه...
فقال له قُطُز: أبصرْ لي...
فضرب بالرمل... وجعل يصوّبُ فيه النظر...
وقال: إلى هذا العجب!!!
فقال له: قل...
فقال: أنت تملك مصر وتكسِرُ التتار!...
فضحكنا منه..

(١) سورة يوسف، آية ١٠٠.

ثم قال له بيبرس: أبصر لي...

فضرب وجعل يُصوِّبُ النظر إلى الآخر ويتعجَّب!!!

فقال له: قل...

فقال: أنت أيضا تملك مِصْرَ... ويطول مُلكك!!!

فضحكنا...

ثم قلت له: فأبصرْ لي...

فضرب وقال: أنت يحصل لك إمْرَةٌ كبيرة وهذا سَبَبُها... وأشار إلى بيبرس البندقداري...

ويُقتل هذا... وأشار إلى قطز!!!

فوالله ما خرم من قوله ذرة»!!!

* * *

وحكى ركن الدين الجزري... أستاذ الفارس أقطاي... قال:

«كنا عند قطز في أول دولة أستاذه الملك المعز أيبك..

وقد حضر عنده منجم مغربيّ موصوف بالحذق..

فأمر مَنْ كان هناك بالانصراف إلا أنا...

وقال للمنجم: أضرب وانظر من يملك مِصْر بعد أستاذ المُعزّ ويكسر التتار؟..

فضرب وجعل يعدُّ على أصابعه وقال: يطلع لي اسم فيه خمس حروف بلا نقط.... وأبوه أيضا كذلك... وأنت فاسمك ثلاثة أحرف؟!...فتبسم قُطُز وقال له: لم لا تقول محمود بن مودود؟...

فقال المنجم: هو والله هذا...

قال قطز: أنا محمود بن مودود... أنا الذي أكسر التتار... وآخذ بثأر خالي خوارزم شاه منهم»!!!

* * *

ماذا نستنبط من هذه الأقاصيص... مع التسليم أن أقوال المنجمين لا يعتمد عليها؟!

نستنبط أنّ مسألة أن قُطُز هو الذي يملك مصر ويكسر التتار... قد استفاضت وأصبحت جزءًا من تكوين قُطُز... تزيده الأيام نموًا في تركيبه.. ويزداد هو يوما بعد يوم إيمانا بها... وعملا لتحقيقها!!!

عندما اشتراه السلطان المُعِزّ؟!

«وأما مبدأ أمر قُطُز...

فإنَّ السلطان الملك المعزّ أيبك اشتراه وهو أميرّ...

فربَّاه وأحسن تربيته...

ولما قُتل أستاذه.. قام في تولية ابنه الملك المنصور نور الدين علي بن المعزّ...

وكان حينئذ أتابك العساكر بالديار المصرية...

ولما سمع بأمر التتار... خاف أن تختلف الكلمة لسبب صغر ابن أستاذه..

فعزله ودعا إلى ¨ ...

فبويع له في ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة...
فقدر الله على يديه نصرة الاسلام بعين جالوت»!!!

* * *

ها هنا اكثر من مفتاح من مفاتيح شخصية قُطُز!!!
الأول... أنه تربى تربية حسنة عند أستاذه الأمير أيبك...
الثاني... لما قتل استاذه سارع الى تولية ابنه عليّ بن المعزّ..
وهذا يدل على الوفاء لمن رباه وأحسن إليه!!!
وكان قُطُز حينئذ أتابك العساكر بالديار المصرية... أي قائد عام الجيش...
وكان يمكن ان يتولى في تلك اللحظة... ولكن تريث حتى لا يقال في شأنه ما يُسيء الى سمعته... وهذا يدل على كياسة وبُعد نظر!!!.
الثالث... حتى جاءت اللحظة المناسبة... وهو تهديد التتار للبلاد بعد ان استولوا على الشام...
" مؤتمرا... انتهى الى اختياره رئيسا للبلاد ليواجه الأخطار... فبويع وتسلطن!!!
وهذا يدل على أنه ذو استعداد سياسي كبير... يؤهله للرياسة واتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب!!!

كان شجاعا ... بَطَلا ؟!

« كان شجاعا!!!

« بطلا!!!

« كثير الخير!!!

محبًّا للإسلام وأهله ... وهم يحبُّونه »!!!

المفتاح الأول ... كان شجاعا ... بل وأكثر من شجاع ... فإن إقدامه على مواجهة التتار ... وهم في أوج انتصاراتهم .. والعالم الإسلامي في أوج هزائمه وتشتته .. يدل على أنه كان أشجع الشجعان ... بل وذروة شجعان زمانه وأمَّته ... فإن أحدًا من المسلمين كافة لم يجرؤ على مِثْل موقفه!!!

المفتاح الثاني .. بطلا ؟!

بل بطل الأبطال .. انعقدت ألوية البطولة في زمانه على رأسه ورفرفت!!!

لقد زحف التتار كالجراد المنتشر في انحاء العالم كله شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ... يذبحون ويقتلون ويدمرون ويحرقون ... ويسبون النساء ويسترقون الصغار والكبار ... والملوك تركع أمامهم ...

والبلاد تتهاوى تحت سنابك خيولهم ...

هم المنتصرون دائما .. وغيرهم المنهزمون دائما ...

حتى صار شعار التتار الى المالك « عليكم الهرب وعلينا الطلب »!!!

هذا في أنحاء العالم كله ... فماذا كان في العالم الاسلامي ؟!

استولى عليه كله التتار ...

واسقطوا خلافته ... وذبحوا أهل بغداد .. وزحفوا الى الشام فاستسلم أهله ... ولم يبق أمامهم إلا مصر!!!

هذا هو الجو العالمي العام ... فمن ذا الذي يستطيع ان يقف أمام زحف التتار بعد الآن؟!!

في هذا الجو اليائس البائس ... في هذا العالم المرتعش رُعبا من فظائع التتار...

خرج من القمقم مارد اسمه قُطُز!!!

ونادى بأعلى صوته: أنا أكسر التتار!!!

وسارع الى رُسُل التتار فذبحهم... وأمر ان يُطاف برءوسهم في القاهرة...

ثم خرج على رأس جيشه ... يتحدى التتار!!!

ثم كان النصر... وأفنى التتار... وعلى رأسهم مقدّمهم كُتُبُغا نُوين!!!

فكيف لا يكون بطلا من فعل هذا... في مثل هذه الظروف؟!!

بل يمكن أن يقال أن قُطُز أصبح بعد نصره على التتار... حديث الساعة... وأسطورة العالم!!!

وبطل العالم الذي لا يبارى!!!

البطل القاهر للتتار!!!

البطل المدمر للمغول!!!

البطل الذي لا يضارعه بطل قبله ولا بعده!!!

المفتاح الثالث... كثير الخير؟!

وأي خير هو أعظم من انتزاع النصر من أنياب الوحوش الضارية التي لا ترحم صغيرا ولا كبيرا؟!!

وأي خير أعظم من الثأر للإسلام في انحاء العالم... واعادة الكرامة للمسلمين... وقد كانوا أذلة يتخطفهم التتار؟!!

وأي خير هو أعظم من تحطم جبروت الجبارين... وتمريغ جباه الجبابرة في التراب... وإلجائهم الى لعق الهزيمة... وازدراد الذُّل والهوان؟!!.

وأي خير هو أعظم من اعادة الحياة الى الموتى... والأمل الى اليائسين... والعّزة إلى الأذلّة... والأمن إلى الخائفين؟!!

«كان كثير الخير»؟!!

هذا تعبير يعجز عن وصف مستوى الخير من شخصية قطز!!!

يمكن ان يوصف انسان أنه كثير الخير... اذا كان كثير الطاعات... يسارع الى فعل الخيرات على المستوى الفردي...

أمّا بالنسبة الى أمثال قُطُز... بالنسبة إلى رجالات التاريخ الأفذاذ... الذين حوّلوا مجرى التاريخ...

فكثرة الخير لها مضمون بعيد بعيد...

مضمون على مستوى العالم كله..

وإذا أردت ان تتصور كثرة خير قُطُز...

تصوَّر رجلا كان مملوكا... فصار مَلِكا...

فصار زعيا... فنفخ الروح في شعبه... فخرج به الى لقاء الموت المحقّق للجميع..

إلى لقاء التتار!!!

فالتحم... بالتتار... فالتحم شعبه من ورائه بالتتار..

وصبَّ كل فريق في عدوه كُلَّ أسباب الموت والهلاك...

وألقى قُطُز خوذته عن رأسه!!!

ونزل بنفسه في القتال!!!

فلما رأى شعبه منه حرصه على الموت... استبسلوا...

حتى انتزعوا النصر من أنياب الآساد التي لا تُقهر!!!

فلما كان النصر... اتخذ التاريخ له مجرّى غير مجراه..

فبعد ان كان التتار هم الذين يخططون خريطة العالم كيف شاءوا...

تقهقروا الى الوراء... أمام زحف الفارس الجديد...

البطل سيف الدين قُطُز!!!

وجعل ذلك الفارس الميمون يُعدّل خريطة العالم... بسيفه المبارك!!!

المفتاح الرابع... محبًّا للإسلام وأهله... وهم يحبُّونه؟!

ما معنى هذا؟!! معناه أنّ قطز كان زعميا شعبيا محبوبا من الشعب كله... لأنه كان يحب الشعب ويبادله حبا بحبّ!!!

وهذا سر من أسرار النصر في معركة عين جالوت!!!

فلو خرج قطز بالجيش المصري... خروج الملوك الطغاة... الذين لا يأبهون بحبّ الشعب لهم... ولا بحبهم للشعب.. وإنما هي أوامر عسكرية... وجنود مرصوصة كالحجارة... فإذا كان الالتحام... ولّوا الأدبار أمام أعدائهم!!!

لو خرج بالجيش المصري كما يخرج الفراعنة والطغاة... جبّار يسوق جنوده بعصاه!!!

ما استطاع ان ينتصر على التتار في عين جالوت...

ولكنه كان يحب الشعب... وكان الشعب يحبه!!!

فلما ناداهم سارعوا إليه... على قلب رجل واحد!!!

يُحِبُّهم ويُحبُّونه!!!

فلما كان النزال... ألقى خوذته وتقدم الى الموت...

فاشتعل الجيش اخلاصا وإقداما وقتالا وفداءً!!!

فأنزل الله نصره على قائدهم وعليهم... لأنهم تحابوا في الله... وقاتلوا في سبيله!!! محبًّا للإسلام وأهله؟!!

وهم يُحبُّونه؟!!

من ها هنا فليتعلم الساسة والقادة!!!

إنّ أعظم الخزائن التي لا تنفذ بالنسبة إلى أي حاكم.. هي خزينة حبّه للشعب... وحبّ الشعب له...

وحبّ الشعب للحاكم لا يأتي من فراغ...

وبغض الشعب للحاكم لا يكون إلا من ظلمه للشعب!!!

وبالتأمل في قول المؤرخ:

« كان محبًّا للإسلام وأهله... وهم يحبّونه » ؟!!.

ندرك أن قطز كان زعيما شعبيا محبوبا من المصريين... والمصريون يحبونه..

ومن ذلك نستنبط أنه تسلطن لخدمة الإسلام... لخدمة الشعب..

لا لمجرد التسلطن والفخفخة!!!

ولو كان كذلك لاستسلم لتهديد التتار.. وانضوى تحت سلطانهم... كما فعل غيره من الملوك في الشام وغير الشام...

ولكن لم يكن طالب علو في الأرض بغير الحقّ..

وإنما الملك لتحقيق أهداف الشعب العليا... لإعلاء الاسلام... والثأر للإسلام... وإعزاز دين الله في الأرض!!!

ومن هنا خرج الى التتار.. إمّا الموت وإمّا النصر..

إحدى الحسنيَيْن!!!

وهذا لا يكون إلا من عملاق من عمالقة الحقّ... الذين يتصلبون في وجه مردة الباطل انتصارا للحق!!

إنّ غريزة الشعب أي شعب... لا تكذب...

فإذا رأيت شعبا يحب حاكمه.. فاعلم انه صادق في خدمة شعبه..

وإذا رأيت شعبا يبغض حاكمه.. فاعلم أنه مخادع لشعبه أفاك زنيم!!!

والحاكم الأبله هو ذاك الذي يخفي رأسه في الرمال كالنعام ولا يبالي أحبّه الشعب أم كرهه؟!!فإذا جَدَّ الجدّ أسلم الشعب حاكمه الى عدوه خلاصا من إجرامه!!!

ولكنَّ الحُكْم يُعْمي ويُصمّ!!!

خلاصة المقال أن قطز كان زعيما محبوبا من الشعب المصري... يبادل الشعب حبا بحبّ!!!

فلما خرج بذلك الشعب ليقاتل التّتار...

كان الشعب تحت قيادته كالبنيان المرصوص... يفديه بروحه.. لأنه رأى قائده قطز يسبقه الى التضحية بحياته في قتال الأعداء!!!

أروع مشاهد البطولة من البطل؟!

« وذكر عنه...

أنه لما كان في المعركة يوم عين جالوت...

قُتِل جواده...

ولم يجد أحداً في الساعة الراهنة من الوشاقيّة[1]... الذين معهم الجنائب...

فترجل!!!

وبقي كذلك واقفا على الأرض!!!

ثابتا في محل المعركة!!!

وموضع السلطنة من القلب!!!

فلما رآه بعض الأمراء... ترجّل عن فرسه...

وحلف على السلطان ليركب!!!

فامتنع السلطان وقال:

ما كنتُ لأحرم المسلمين نفعك!!!

ولم يزل كذلك حتى جاءت الوشاقيّة فركب!!!

فلامه بعض الأمراء وقال يا خَوَنْد: لم لا ركبتَ فرسَ فلان؟... فلو كان رآك بعض الأمراء لقتلك.. وهلك الإسلام بسببك!...

"ل: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة!!!

(١) جمع أوشاق... فرقة من خدم السلطان عملها ركوب الخيل للتسيير والرياضة.

« وأما الإسلام... فله ربٌ لا يضيِّعُه...

« قد قتل فلان وفلان وفلان... وعَدَّد خلقا من الملوك... فلم يضيِّع الله الإسلام» !!!

ماذا في هذه الأقصوصة الطريفة؟!

فيها دليل على قوة إيمان قُطُز...

وأنه لا يبالي أوَقع عليه الموت أم وقع هو على الموت!!!

وأنه لا يريد أن يحرم جيش المسلمين من مقاتل يقاتل العدو...

وأما حياته هو فلا وزن لها عنده... فإن مات فإلى الجنة!!!

مَلِك عظيم... يخرج على رأس شعب عظيم؟!

« وكان حين ساق من الديار المصرية... كان في خدمته خلْق من كبار الأمراء من البحريَّة وغيرهم...

ومعه الملك المنصور صاحب حماة...

وجماعة من أبناء الملوك...

فأرسل إلى صاحب حماة يقول له: لا تعتنِ بمدّ سماط في هذه الأيام...

وليكن مع الجندي لحمه في سولقه يأكلها... والعَجَل العَجَل» !!!

* * *

هذه عقلية الملك قُطُز...

إنه يقول للملك المنصور: لا تعتنِ بمدّ سماط في هذه الأيام!!!

أي دع عنك أيها الملك ترف الملوك... فنحن في حالة حرب... أحوج

ما نكون الى كل قرش يُنفق!!!

وليكن مع الجندي لحمه في سولقه يأكلها!!!

أي كل جندي يحمل في مخلاته قطعة لحم يأكلها اذا جاع... حيث لا وقت نضيعه في مدّ السماط!!!

عقلية مقاتل... مَلِك مقاتل!!!

التوفيق في اختيار وقت المعركة؟!

«وكان اجتماعه بعدوه... في العشر الأخير من رمضان... يوم الجمعة...

وهذه بشارة عظيمة...

فإن و بدر كانت يوم . في شهر رمضان...

ولهذا نصر الله تعالى الإسلام نصرا عزيزاً!!!

* * *

اقول... هذا جانب عظيم من جوانب شخصية قُطُز!!!

إنه التحم مع عدوه... في الثلث الأخير من شهر رمضان...

وهذه فضيلة عظيمة...

وفي يوم الجمعة... وهذه فضيلة ثانية...

وهذا التوفيق لا يأتي صدفة... وإنما هو الإلهام دفعه الى هذا الاختيار...

ليجتمع للمعركة من أسباب النصر ما يحقق للمسلمين النصر على عدوهم!!!

مؤمن وشجاع ومستقيم؟!

وقال أبو شامة:

«وكان سيف الدين قطز هذا...

موصوفا بمواظبة الصلوات...

والشجاعة...

وتجنب شرب الخمر.»!!!

اقول... أما الشجاعة فقد مرَّ الحديث عنها عن قريب...

وأما مواظبته على الصلوات... فهذه فضيلة عظيمة ترفعه رفعا عظيما...

فإن من واظب على الصلوات... واظب على سائر فضائل الدين...

لأن الصلاة عماد الدين... ومَن حافظ على الأساس... حافظ على الفروع...

وأما تجنب شرب الخمر... فهو دليل على أن الرجل كان ملتزما بسلوك الإسلام...

ولو ترك نفسه وهواها... لفعل كما يفعل كثير من الملوك... يتلذذون بالنساء والكأس!!!

ولكن لم يفعل... ووقف عند حدود الله...

رغم فتنة المُلك... خاصة مُلك مصر!!!

حيث دواعي المتاع أقوى... ودوافع اللذة وفيرة!!!

إنّ الرجل يشغله شيء آخر...

يشغله كسر التتار!!!

ومَن شغلته عظائم الأمور... لم يجد فراغا لسفسافها!!!

مدة سلطنته... عامًا واحدًا ؟!

« وكانت مدة مملكته أربعة عشر شهرا وثلاثة عشر يوما...

وقال الملك المؤيّد:

« وكانت مدّة سلطنته... أحد عشر شهرا وثلاثة عشر يومًا »!!!

اقول... خلاصة المقال أنَّ مدة مُلكه نحو عام واحد... تزيد قليلا... أو تنقص قليلا!!!

فماذا نستنبط من هذا؟!

نستنبط أنَّ له دورا هاما خطيرا... يؤديه... ثم ينتقل سريعا الى العالم الآخر...

وهو شبيه في هذا بشخصيتين عظيمتين خطيرتين في تاريخ الإسلام...

أبو بكر... وكانت مدة خلافته سنتين وبضعة أشهر!!!

وعمر بن عبد العزيز... وكانت مدة خلافته نحو سنتين ونصف!!!

عظيمان لكل منهما دور في الإسلام على الغاية من الخطورة...

ومع هذا أدّى كل منهما دوره... في أقل وقت ممكن... ثم انتقل الى الآخرة سريعا!!!

أما أبو بكر الصديق... فمن يُصَدّق أنه يحارب العرب جميعا ما عدا المدينتين... ثم ينتصر عليهم جميعا... ثم يفتح جبهتين عالميتين في الشرق والغرب في وقت واحد... ثم ينتصر على الامبراطورية الفارسية شرقا... وعلى الامبراطورية الرومية غربًا في نفس الوقت... ثم ينتقل الى ربه...

كل ذلك يحققه ابو بكر في سنتين اثنتين!!!

هاهنا معجزة بالنسبة الى أبي بكر...

أيعقل اتمام تلك الأعمال الضخام في سنتين؟!!

حدّث هذا... وهو واقع تاريخي مستفيض متفق عليه!!!

وأما عمر بن عبد العزيز... فقد تربَّع على عرش يمتد من الهند الى المحيط الأطلسي... وقد اشتد فيه الفساد...

فقضى على الفساد كله...

وحقَّق العدل كله... ونطق بعدله العالَم كله...

كل اولئك في سنتين ونصف!!!

أيُعقل هذا؟!

هو شيء لا معقول... ترفضه العقول...

ولكنه واقع تاريخي... حَـدَث... واستفـاض واتفـق عليـه الأقـدمـون والمحدثون!!!

ثم يأتي صاحبنا... الملك المظفَّر قُطُز...

وَحَّد المسلمين بعد أن يئسوا أجمعين من أن تقوم لهم قائمة بعد يومهم هذا...

ها هو العالم الإسلامي المترامي الأطراف وقد تهاوى كله واستسلم تحت أقدام التتار...

ولم يبق الا هذه المملكة المسماة مصر!!!

وماذا تستطيع أن تفعل هذه المصر أمام هؤلاء الغزاة الفاتحين القاهرين الذين لا يرحمون؟!

فانبعث في مصر عملاق اسمه قُطُز...

وقال لهؤلاء البرابرة الذين لا يُقاوَمون... هُوَذا أنا ذا أيتها الكلاب المسعورة... والذئاب المنهومة!!!

ونفخ في الموتى من روحه...

فتفتحت قلوب المصريين جميعـا... واخضـوضرت أعـوادهـم... واهتزت بالحياة!!!

وصرخ العملاق صرخته المقدسة... وجعلها شعارا لجيشه:

وإسلاماه!!!

فجعلت النفوس تهفو الى نداء زعيمها...

فخرج الشعب المصري كله... أمراؤه... وجماهيره...

وخرج معهم الذين لجأوا الى مصر من الشام فرارا من فظائع هولاكو!!!

فلما كانت المعركة...

انتفض العملاق الأسمر... السلطان الملك المظفَّر قُطُز...

وهبَّت من أعماقه رياح الجنَّة...

إمَّا النصر.. وإمَّا الشهادة...

وألقى العملاق بخوذته...

وبرز بنفسه الى الأعداء... وهو يهتف...

وإسلاماه!!!

وإسلاماه!!!

وإسلاماه!!!

وكان حريصا على الشهادة... حريصا على الموت!!!

ما أعظم ذلكم العملاق... في تلك اللحظة المقدسة!!!

وانتزع الأسد المصور... النصر من التتار...

واستدار التاريخ من اليسار البربري... الى اليمين الإسلامي!!!

ذلكم قُطُز... في عام واحد!!! أعدَّ شعبا يائسا!!!

ونقله من الموت الى الحياة!!!

مِن الفزع والاستسلام... الى التحدي والصدام!!!

ما كان أحد قطّ يظن أنَّ أحَدًا يستطيع أن ينتصر على التتار... ولم يسبق أن هُزِم لهم جيش!!!

فهزمهم بإذن الله!!!

وكان مظهر هذه القدرة الإلهية هو هذا القُطُز!!!

كل اولئك أتمَّه قُطُز في عام واحد!!!

أيُعقل هذا؟!

هذا شيء لا معقول... ترفضه العقول!!!

ولكن هذا حدث... وهو واقع تاريخي متفق عليه!!!

فما معنى هذا... وما معنى تشابه هذه الظواهر الثلاث في هؤلاء العظماء الثلاثة... أبي بكر... وعمر بن عبد العزيز... وسيف الدين قُطُز؟!!

ظاهرة تحقق أعمال ضخام... على أيديهم في زمن قليل؟!!

معناه... أنَّ الثلاثة عباقرة... غاية العبقرية!!!

وأولياء من أولياء الله... غاية الولاية!!!

وما تحقق على يدي كل واحد منهم... من جلائل الأعمال... في وقت قصير...

هو كرامة يُكرم الله بها... مَن شاء من عباده... الذين يختارهم لتحقيق تحولات خطيرة في مسار الحياة والأحياء!!!

هذا أبو بكر... رضي الله عنه... العرب أجمعون ينقلبون ويرتدون... فوقع الاختيار على أبي بكر...

فأباد المرتدين... وفتح فارس... وفتح الروم... في سنتين!!!

كيف؟!!

لا تقل كيف؟...

إنها كرامة أكرم الله بها الصدِّيق!!!

وهذه امبراطورية تشمل ثلاثة ارباع العالم. انتشر فيها الفساد... ومطلوب رجل يقضي على هذا الفساد...

فوقع الاختيار على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه...

فأمات الفساد... وأحيي العدل... في سائر العالم... في سنتين ونصف!!!

كيف؟!

لا تقل كيف... إنها كرامة أكرم الله بها عبدا من عباده!!!

وهذا عالم إسلامي... تداعى وانهار أمام ضربات التتار... وفَرَّ فَزَعا ورُعْبا وهَلَعا أمام المغول!!!

القلوب واجفة... والنفوس خائفة... ولا أمل في نصر قطّ...

مطلوب رجل... يجمع هؤلاء الموتى الهالعين... ويتصدى لهؤلاء الغزاة القاهرين... الذين لا أمل في قهرهم... أو حتى مجرد التفكير في مقاومتهم!!!

فوقع الاختيار على قُطُز... فهيّأ الشعب المصري... ومن التجأ اليه... ونفخ فيه من روحه... وخرج على عَجَل... واصطدم بالمغول... وجعلهم أحاديث!!!

كل ذلك في عام واحد!!!

كيف؟..

لا تقل كيف... ولكن هي كرامة أكرم الله بها السلطان قُطُز ـ رحمه الله ـ!!!

المَلِك... ثم المملوك... ثم المَلِك... ثم قاهر...
مَن قَهَر الملوك؟!!

لم يكن قُطُز... ذا أصل خسيس... وإنما كان ملكا ابن ملوك...

فهو ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه السلجوقي...

فهو على أقل تقدير... وهو صغير... كان أميرا من أمراء الأسرة المالكة...

فخاله هو السلطان الأعظم...

وأمه أخت ذلك السلطان...

وربما كان السلطان يعدّه ليخلفه على العرش...

فهو كان مَلِكا ابن ملوك... حين كان صغيرا... فليس المُلك بشيء يستهويه... فعنده تَشبُّع من أبهة الملوك... لنشأته في أحضان الملوك!!!

ثم أباد التتار مُلْكَ خاله في فتوحاتهم...

ووقع محمود بن مودود (قُطُز) الطفل أسيرا...

وبيع رقيقا في البلاد الشامية...

فصار المَلِك مملوكا!!!

ثم كان ما كان... وتسلطن المملوك قُطُز على الديار المصرية... فصار المملوك مَلِكا... مرة أخرى!!!

ثم كانت معركة عين جالوت... فصار الملك قُطُز... قاهرًا لهولاكو قاهر الملوك...

وعلى هذا يمكنك أن تقول عن قطز:

هو المَلِك... ثم المملوك... ثم المَلِك... ثم قاهر... قاهر الملوك!!!

عبقرية . . .

السلطان الملك المظفَّر . . .

سيف الدين قُطُزْ . . . ؟!

هل كان قُطُز عبقريّاً؟!
نعم... بل قمة من قمم العباقرة!!!
كيف كان ذلك؟!

مَرَّ على كلّ شيء يُؤدي الى العبقرية؟!

العباقرة لا يأتون من فراغ... وإنما العبقرية نصفان... نصف موهبة... ونصف ظروف...

أمّا الموهبة فكانت متحققة في شخصية قُطُز من أوّل أمره!!!

وأمّا الظروف... فقد مَرَّ قُطُز على كل شيء يؤدي الى تكوُّن العبقرية!!!

فما هي هذه الظروف التي أدَّت به الى الصعود الى قمة العباقرة؟!!

وُلِدَ في بيت مُلْك وسلطان عظيم...

في بلاط الملك العظيم جلال الدين بن محمد خوارزم شاه...

وقُطُز كان ابن أخت هذا السلطان العظيم...

وسمع الطفل قُطُز كيف هَزَم جنكيز خان سنة ٦١٨ هـ خاله...

السلطان جلال الدين... في معركة حامية الوطيس... وكيف التجأ خاله بعد الهزيمة الى ملك «دلهي»... أما أطفال خاله فوقعوا في أيدي «جنكيز خان» الذي أمر بذبحهم!!!

أحداث رهيبة يشيب من هولها الولدان!!!

مُلْك عظيم يتبدد أمام زحف التتار... ومَلِك يُهزَم ويلتجئ الى الهند... وأولاده يُذبحون؟!!

واستنقذت الأقدار طفلا من هذه الأسرة المالكة... اسمه محمود بن مودود... وفيما بعد اسمه قُطُز!!!

وباعوه بالشام عبدا رقيقا!!!

هذه التركيبة العجيبة من الأحداث السريعة الرهيبة...

ترسبت في أعماق الطفل محمود... وكان لها أكبر الأثر في تكوين عبقريته المبكرة!!!

وحين يجمع شخص بين الأصل الكريم... فهو من سلالة ملوك كرام...

وبين الموهبة والاستعداد... تكن شخصيته شخصية سويّة غير معقدة...

أمّا إذا كان الشخص الموهوب... من أصول خسيسة... فإنه يكون شيطانا عبقريا... يستعمل عبقريته في الشرّ والانتقام!!!

أمّا مَن كان ذا أصل كريم... فإنه يكون انسانًا عبقريًا...

وشتّان بين عبقريّ انسان... وعبقريّ شيطان!!!

إنّ شقاء العالم على مَرّ التاريخ... كان على أيدي العباقرة الشياطين!!!

وإنّ سعادة العالم كانت دائما على أيدي العباقرة الأخيار!!!

وكان قُطُز أحد هؤلاء العباقرة الأبرار!!!

نشأ في مستوى الملوك!!!

ثم اضطرته الظروف أن يتحول الى عبد مملوك!!!

هذا التناقض المتضاد في مشاعره وأحاسيسه... فضلا عن الموهبة... كان

هو البذرة التي نمت منها شجرة عبقريته وترعرعت!!!

ثم ماذا؟!

ثم اشتراه الأمير المعزّ أيبك... فأحسن تربيته...

ثم ماذا؟!

ثم انتقل المملوك قُطُز... الى قلب حياة القصور... حيث الدسائس والمؤامرات والاغتيالات!!!

إلا أنه كان مؤهلا كي يعيش في قلب العاصفة... لأنه وُلِد في العاصفة!!!

مهما تكن ألاعيب القصور من حوله من ضراوة وخُبث ومآزق... فإنه عاش ما هو أشد منها ضراوة وإجراما... عاش فترة اقتلع التتار فيها مُلْك آبائه وأجداده... وذبّحوا الملايين... وشرّدوا الملايين... وكان هو أحد المشردين!!!

فحين وُجد في قلب مؤامرات أمراء المماليك.. كان مستعدًا لها... لأنه ذاق ما هو أشدّ منها إجراما!!!

ثم ماذا؟!

ثم اختاره الملك المعزّ... نائبا للسلطنة... وكان ذلك في سنة ٦٥٠ هـ...

ومكث قطز... نائبا للسلطنة... حتى سنة ٦٥٧ هـ... حيث تسلطن في الرابع من ذي الحجة من السنة السابعة والخمسين بعد الستمائة...

(واتفقوا على إقامة الأمير سيف الدين قطز المعزيّ... سلطانا... لأنه كبير البيت... ونائب المَلِك... وزعيم الجيش... وهو معروف بالشجاعة والفروسية... ورضي به الأمراء الكبار... فأجلسوه على سرير المُلك... ولقبوه الملك المظفّر) ...

فما معنى هذا؟... معناه أن السلطان قُطُز... كانت بيده الأمور الفعلية

من سنة ٦٥٠ هـ سنة تعيينه نائبا للسلطان... حتى سنة ٦٥٧ سنة اختياره سلطانا...

لأنه بحُكم منصبه كان هو الحاكم الفعلي للبلاد المصرية طيلة هذه السنين السبع!!!

واستطاع قُطُز في هذه السنين أن يسوس البلاد أحسن سياسة... ويتعرف على أمورها عن قُرْب...

حتى اذا تسلطن... كانت سلطنته تحصيل حاصل... ومجرد اصدار القرار السياسي اللازم لتقرير الواقع!!!

هذه بعض الظروف التي أدَّت الى ظهور عبقرية قُطُز... فضلا عن وجود الموهبة أصلا في شخصيته!!!

فماذا عن الظروف العالمية؟!

عالَم يكتسحه التّتَار... وينادي: هل مِن مُنقِذ؟!

كانت الظروف العالَمية كلها عند ظهور قُطُز... تنادي: كيف الخلاص؟!

انطلق جنكيز خان كالإعصار المدمر... يفتح كل ما صادفه...

وأصبح باستطاعته التوجه نحو الجنوب الغربي لتركيز الجهد ضد دولة المسلمين التي وصلت الى أوج قوتها بقيادة «محمد خوارزم شاه»... وكان هذا قد نظم الدولة الخوارزمية بحيث باتت تمتد من كردستان والخليج العربي حتى نهر السند...

فأطاح التتار بتلك الامبراطورية... ونكلوا بها تنكيلا...

وبعد سنوات هاجموا بغداد... وقضوا على الخليفة والخلافة... وذبحوا أهلها...

ثم زحفوا الى الشام واستولوا عليه... ثم جاء دور مصر... وكان نائب السلطنة فيها الأمير قُطُز...

هذا عن التتار بالنسبة الى العالَم الإسلامي... فماذا عن باقي العالَم؟!

انطلقوا يفتحون ويدمرون ويذبحون... في ممالك الشمال... حتى وصلوا الى روسيا... واوكرانيا... وبولندا... ثم بلاد المجر... ودمروا قسما كبيرا من أوروبا!!!

فلا أحد يستطيع أن يوقف زحف هؤلاء التتار!!!

العالم كله قد استنعج أمامهم... وخرَّ لهم ساجدا!!!

وكان لسان العالم كله آنذاك: كيف الخلاص؟!... متى الخلاص؟!... هل مِن منقذ ينقذ العالم من هؤلاء البرابرة؟!!

وإذا وصل الشعور العالمي الى هذه المرحلة...

وأصبح كل انسان في العالم يشعر بالخوف والخطر على حياته من هؤلاء التتار... الذين يستبيحون كل شيء... ولا يقيمون وزنا لأي شيء!!!

اذا وصل الشعور العالَمي الى هذا الحدّ... يمكنك أن تدرك: ماذا كان شعور كل إنسان في العالَم... حين سمع أن هناك بطلا أسطوريا تصدَّى لهؤلاء البرابرة التتار... في معركة فاصلة... حَكمَت في قضيتهم... أنهم قد انهزموا هزيمة لن يقوموا بعدها أبدًا؟!!!

كيف كان يكون شعور كل انسان في أنحاء العالم... وهو يسمع هذا النبأ العظيم الخطير غاية الخطورة:

أيها الناس... في أنحاء العالَم... اسمعوا أخطر نبأ سمعتموه في حياتكم... وطال انتظاركم له...

انتصر السلطان الملك المظفَّر... سيف الدين قُطُز... ملك المملكة المصرية...

على جيش التتار... اليوم... الخامس والعشرين... من رمضان... من السنة الثامنة والخمسين بعد الستمائة؟!!!

ايها الناس... في كل مكان من العالَم... يا مَن طال انتظاركم لهذه اللحظة المباركة... يا من ظننتم أن هزيمة التتار مستحيلة... وأن خلاص العالم من شرورهم مستحيل...

لقد هُزم التتار... في معركة عين جالوت...

وقُتِل قائدهم... وقتلوا جميعا عن آخرهم!!!

يمكنك أن تتصور كيف كان شعور كل انسان من سكان العالَم كله... وهو يسمع نبأ هزيمة التتار لأول مرة في التاريخ؟!!!

ومدى الشعور بالفرحة التي تجتاح كل انسان وهو يسمع خبرًا كأنه خيال من الخيالات!!!

لقد تعوَّد الناس جميعا... أن يسمعوا أخبار انتصارت التتار... وفظائع التتار!!!

أمَّا الآن... ولأول مرّة...

فإن الناس يسمعون خبر هزيمة التتار... هزيمة ساحقة... انكمشوا بعدها الى الوراء... ولم يفلحوا بعدها أبدا!!!

وسأل الناس جميعا: مَن فَعَلَ هذا بآلهتنا التّتار؟!

فنادى لسانُ الزمانِ... كلَّ انسان:

فَعَلَه بطل اسمه... سيف الدين قُطُز!!!

كُتْبُغَانُوِين . . .

قائد قوات التَّتَار . . .

مجرم حَرْب . . .؟!

كُتْبُغَانُوِين؟!
نائب هولاكو على بلاد الشام...
وقد فتح لأستاذه هولاكو من أقصى بلاد العجم إلى الشام...
وقد أدرك جنكيز خان... جدّ هولاكو!!!

مجرم حَرْب؟!

وكان كُتْبُغَانُوِين هنا يعمل للمسلمين ببلاد خراسان والعراق في حروبه أشياء لم يسبقه إليها أحد!!!

كان إذا فتح بلدا ساق المقاتلة منه... إلى البلد الذي يليه...

ويطلب من أهل البلد أن يأووا هؤلاء إليهم...

فإن فعلوا حصل مقصوده في مضيق الأطعمة والأشربة عليهم... فتقتصر مدة حصارهم!!!

وإن امتنعوا قاتلهم بهؤلاء... حتى يفنى هؤلاء!!! فإن حصل يكون الفتح!!!

وإلا كان قد أضعَف أولئك بهؤلاء... ثم استأنف قتالهم بجنده حتى يفتحه!!!

مجرمٌ لعين؟!

وكان يبعث إلى الحصن يقول لهم: إنّ ماءكم قد قلّ... فافتحوا صُلحا... قبل أن آخذه قسرا..

فيقولون: إن الماء عندنا كثير...

فيقول: إن كان كثيرا انصرفت عنكم...

فيقولون: ابعث من يشرف على ذلك...

فيرسل رجالا من جيشه معهم رماحٌ مجوّفة... محشوّة سُمًّا!!!

فإذا دخلوا قاسوا ذلك الماء بتلك الرماح... فيفسح ذلك السمّ... ويستقرّ في الماء!!!

فيكون سبب هلاكهم ولا يشعرون!!!

وكان لعنه الله شيخا كبيرا قد أسنّ... وكان مهيبًا... شديد السطوة!!!

مصرعه يوم عين جالوت؟!

ولما بلغه بروز الملك المظفَّر إليه بالعساكر المصرية... تَلَوّم في أمره... ثم حملته نفسه الأبيّة على لقائهم... وظنَّ أنه يُنْصَر كما كانت عادته!!! فحمل يومئذ على الميسرة فكسرها... ثم أيّد الله المسلمين

وثبّتهم... فحملوا حملة صادقة على التتار... فهزموهم هزيمة لا تنجبر أبدًا!!! وقتل كتبغانوين في المعركة!!! وأُسِر ابنه!!!

ابن كُتْبُغَانُوِين يبكي؟!

وكان شابًا حسنًا...

فأحضر بين يدي المظفَّر قُطُز... فقال له: أهَرَب أبوك؟...

فقال: إنه لا يهرب...

فطلبوه فوجدوه بين القتلى...

فلما رآه ابنه بكى وصرخ!!!

فلما [illegible] المظفَّر قال: هذا كان سعادة التتار... وبقتله ذهب سَعْدُهم!!!

وكذا كان كما قال: لن تفلحوا بعده أبدا!!!

قتله الأمير جمال الدين الشمسي؟!

وكان قتله يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان...

وكان الذي تولى قتله في المعركة... الأمير جمال الدين أقوش الشمسي!!!

الفريق أوّل ... كُتْبُغَانُوِين ؟!

و« نُوِين » ... معناه رأس عشرة آلاف[1] !!!

(١) أي قائد فرقة مسلحة ... اي كانت رتبته العسكرية « فريق أوّل » !!!

بيبرس . . .

يَتَسَلْطَن . . .

مكان قُطُزْ . . .؟!

ذِكْـرُ سَلْطَنَـةِ الملـك الظـاهِـر... وهـو الأسـد الضـاري بيبرس البندقداريّ...

ولما وصل بيبرس... وهو والجماعة الذين قتلوا الملك المظفَّر المذكور إلى الدهليز...

كان عند الدهليز نائب السلطنة... فارس الدين أقطاي المستعرب...

وهو الذي كان أتابكا لنور الدين عليّ بن الملك المعزّ أيبك التركماني...

فلما تسلطن قُطُز أقرَّه على نيابة السلطنة المصرية...

فلما وصل بيبرس البندقداريّ مع الجماعة الذين قتلوه...

سأله أقطاي المُسْتعرب وقال: مَن قتله منكم؟...

فقال بيبرس: أنا قتلته.

قال أ[illegible]ي: يا خَوَنْد... اجلس في مرتبة السلطنة مكانه!!!

الملك الظاهر؟!

فجلس!!!
واستدعيت العساكر للتحليف...
فحلفوا له في اليوم الذي قتل فيه قطز...
(وهو سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة... أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة)...
واستقر بيبرس في السلطنة... وتلقب بالملك القاهر...
ثم بعد ذلك غُيِّر لقبه...
وتلقَّب بالملك الظاهر... لأنه بلغه أن القاهر لقبٌ غير مبارك...

لا تستعجل عن قريب تتولى السلطنة؟!

وكان بيبرس هذا قد سأل من قطز نيابة حلب...
فلم يُجبْه إليها... ليكون ما قدر الله تعالى...
فكأنَّ القَدَرَ قال له حين سأل نيابة حلب: لا تستعجل فإنك عن قريب تتولى السلطنة!!!
ولما حلف الناس له بالصالحية... ساق في جماعة من أصحابه... وسبق العسكر إلى قلعة الجبل... ففتحت له ودخلها...
واستقرَّت قدمه في المملكة!!!

مصر والقاهرة... تستقبل بيبرس... بالزينة التي أعدّت للسلطان قُطُز؟!!

وكانت مصر والقاهرة...

قد زُينتا لقدوم الملك المظفَّر قُطُز...

فاستمرت الزينة للمَلِك الظاهر بيبرس البندقداريّ...

فسبحان الله الفعال لما يريد!!!

تم

فهرس

صفحة

ماذا في هذا الكتاب ؟!

فيه حياة... السلطان الملك المظفّر... سيف الدين قُطُزْ!!!

قاهر التتار!... وبطل معركة عَيْن جالوت

المملوك... الذي صار مَلِكا... ثم قَهَر... قاهر ملوك الدنيا... هولاكو حفيد جنكيزخان!!!

ارسل اليه هولاكو رُسُلًا... يهدده إمّا الاستسلام وإمّا الإبادة... فقتل قُطز رُسُل هولاكو!!!

وخرج على رأس جيشه... والتحم مع التتار في عين جالوت... فأبادهم عن آخرهم... وهو يُردِّد: «وإسلاماه»!!!